المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة خدمة المجتمع

الوصايا

من الكتاب والسنة

" المجموعة الثامنة "

بقلم
الدكتور/علي بن محمد ناصر الفقيهي

الأستاذ بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة "سابقا"

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ

ⓒ الجامعة الإسلامية ؛ ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفقيهي ، علي بن محمد ناصر

الوصايا من الكتاب والسنة - المدينة المنورة.

١٧٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٧ - ٠٩٦ - ٠٢ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-٠٩٧-٠٢-٩٩٦٠ (ج٨)

١ - الوعظ والإرشاد ٢ - الأخلاق الإسلامية أ - العنوان

ديوي ٢١٣ ٢٠/٠٢٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فهذه المجموعة الثامنة من سلسلة الوصايا في الكتاب والسنة نقدمها للقراء الكرام، وقد اشتملت على ثلاث وثلاثين وصية في مواضيع مختلفة يحتاجها المسلم في حياته العملية، منها:

الحث على الصبر الجميل، والنهي عن الحسد، وبيان ما يترتب على الحسد.

وحقوق الأبناء على الآباء، والتحذير من الغلو، ووسطية هذه الأمة. ثم التفقه في الدين قبل الدعوة، وغير ذلك من الموضوعات التي يحتاج المسلم إلى معرفتها والاطلاع عليها، وهي من باب الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين.

ثم إن هذه الوصايا كلها مأخوذة من الكتاب والسنة والمنهج العملي لعلماء سلف الأمة.

نرجو الله أن ينفع بها قارئها، كما نرجو من القراء الكرام تقديم ما يرونه من ملحوظات للاستفادة منها، لأن التعاون على البر والتقوى سبيل المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين.

١٥٧ ـ الوصيـة بالصـبر الجمـيل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـد :

فإن في كتاب الله الكريم الذي لم يفرط الله فيه من شيء. مواعظ وعبر يستفيد منها المسلم في حياته، ليتزود منها لمماته.

ومما جاءت الوصية به والحث عليه ـ الصبر الجميل ـ وهو من الخصال الحميدة، والأخلاق الرشيدة.

فالله يقول لنبيه ﴿ **واصْبِرْ وما صبرُكَ إلا بالله ولا تحْزنْ عليهم وَلاَتَكُ في ضَيْقٍ مِمّا يَمكُرون** ﴾ النحل / ١٢٧ .

وقد قال يعقوب عليه السلام لبنيهِ إخوةِ يوسف عليه السلام حين دبّ لنفوسهم الحسد ودبروا ليوسف تلك المكيدة وادعوا أن الذئب أكله.

وقد ردّ عليهم يعقوب عليه السلام بقوله كما حكى الله عنه، ﴿ . . **قال بل سَوَّلتْ لكُم أنفُسُكُم أمراً فصبر جميلٌ والله المستعان على ماتصفون** ﴾ يوسف/ ١٨ .

إن في قصة يوسف عليه السلام وإخوته، وما جرى فيها ليوسف، حِكم وأحكام، وعِبر ومواعظ يستفيد منها المسلم في سلوكه، ومعاملاته، يتعلم منها أنواع الصبر، الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أنواع الابتلاء بالشر والخير، كما قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشّر والخير فتنة** ﴾ ويزداد المسلم يقيناً بأن هذه الدنيا لا تصفو لأحد من البشر، كما يتضح للمسلم، إن العاقبة الحميدة دائما للمتقين.

فالأنبياء وهم المجتبون، المصطفون يلاقون في هذه الدنيا من المحن والفتن والابتلاء مالا يلاقيه غيرهم.

ولهذا ورد في الحديث الصحيح - إن أشّدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

وفي ذلك - عبرة لأولى الألباب - وهم أهل العقول الراجحة، والله يبتلي عباده بالشر والخير فتنة.

والابتلاء هو الاختبار والامتحان، ولا ينجح فيه إلا الصابرون الصبر الجميل على أحكام الله وقضائه. والصبر على الدعوة والتوجيه وإيصال الخير إلى الآخرين، والله عز وجل ﴿ **يصطفي من الملائِكةِ رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير** ﴾ الحج / ٧٥.

وإذا كانت الدنيا دار ابتلاء، ولم تصف لأحد من الخلق حتى أنبياء الله ورسله، الذين اختارهم الله واصطفاهم لتبليغ رسالته والنصح لعباده، فعلى المسلم أن يأخذ العبرة من ذلك، فيصبر على ما أصابه.

وسورة يوسف التي قص الله فيها على نبيه محمد ﷺ قصة النبي الكريم، الذي قال عنه رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم، ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

فيوسف عليه السلام نبي كريم مصطفى مختار، من نسل هؤلاء الكرماء المختارين وقد حدث له ما قصه الله في هذه السورة العظيمة - المشتملة على أحكام وتوجيهات متنوعة، كما شملت - بيان منهج الدعوة إلى الله عز وجل وتحمل المشاق في سبيل ذلك.

وبيان أن الحسد من الأخلاق السيئة التي يجب على المسلم تجنبها وأن الكيد للآخرين الأبرياء من الأخلاق الذميمة، وان من ابْتُلي بذلك وصبر فإن العاقبة الحميدة له.

وأن من الأخلاق الحميدة العفو والصفح عن المذنبين المخطئين، وذلك من شيم الكرام وأخلاق المرسلين.

فيوسف عليه السلام قال لإخوته: ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ بعد الذي ناله منهم. والرسول محمد ﷺ قال لقومه الذين أخرجوه من مكة أحب البلاد إليه، قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. بعد الذي ناله منهم.

وقد ختمت القصة بعد مائة آية وآية ببيان أن رسول الهدى ﷺ، أنزل عليه هذا الكتاب الذي تضمن هذه المعلومات عما جرى ليوسف عليه السلام، من عند الله عالم الغيب والشهادة فلم يأت به الرسول محمد ﷺ من عند نفسه، ولم يعلّمه بَشَرٌ، قال تعالى رداً على من يزعم ذلك: ﴿ **وَلَقَدْ نَعلَمُ أَنَّهُم يقولونَ إنّما يُعلّمهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذي يُلحدونَ إليهِ أعْجميٌ وَهذَا لِسَانٌ عَربيٌّ مبينٌ** ﴾ النحل/١٠٣.

وكذلك لم يأت بتلك القصص والأخبار من عند نفسه، بل كلها من عند الله، قال تعالى مشيراً لكل ما سبق ذكره في السورة:

﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِم إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وهم يمكرون** ﴾ /١٠٢.

ولما في هذه السورة من أحكام وفوائد عظيمة النّفع فإننا سنتناول الحديث عنها في مباحث تالية، لأن ما فيها هو مما تضمّنه قوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحاً والّذي أوحينا إِلَيْكَ وماوصَّينا بِهِ إبراهِيمَ ومُوسى وعِيسَى**

أنْ أقِيمُوا الدّينَ ولاَ تَتفرّقُوا فيه كَبُرَ عَلَى الْمشرِكِينَ مَاتدعُوهُم إليهِ الله يجتبي إليهِ مَنْ يشاء ويَهدِي إلَيْهِ مَنْ يُنيب ﴾ الشورى/ ١٣ .

فوصايا الكتاب والسنة تشمل كل ما وصَّى الله بِهِ في كتابه أوْ وَصَّى به رسوله ﷺ في سنته .

أيها القارىء الكريم ـ لقد افتتحت هذه السورة الكريمة بالتنويه بمنزلة القرآن الكريم، الذي أنزله الله على رسوله الأمين، بلسان عربي مبين.

قال تعالى : ﴿ الَر * تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ المبين * إنَّا أنْزَلْنَاهُ قُرْءَاناً عَربيًّا لعلكم تَعْقِلُون * نَحْنُ نقصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ القَصِصِ بما أوحينا إلَيْكَ هذا القرآنَ وإن كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ ١-٣ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره :

تلك آيات الكتاب ـ أيْ هذه آيات الكتاب وهو القرآن المُبين ـ أي ـ الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهَا ويبيّنُها .

ثم أخبر تعالى ـ بأنه أنزل هذا القرآن عربياً، لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس .

فلهذا، أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابْتُدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان. كما قال تعالى : ﴿ شهرُ رمضان الذي أُنْزلَ فيه القرآن هدى للناس وبيناتٍ من الهدى ﴾ فَكمُلَ من كل الوجوه، ولهذا قال تعالى : ﴿ نحنُ نقصُّ عَلَيْكَ أحسنَ القَصَصِ بِمَا أوْحَينا إليْكَ هَذَا القرآنَ ﴾ أيْ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن(١) .

---

(١) ابن كثير ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
المسنـــــد ٣/٣٧٨ .

يقول الإمام ابن كثير ـ ومن المناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وانه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد حدثنا سريج بن النعمان، أخبرنا هشيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي عن جابر بن عبدالله: أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: أمتهوكون فيها يابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍ فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني. اهـ .

هكذا يوضح رسول الهدى ﷺ كمال الدين، وانه جاء بالحنيفية السمحة بيضاء نقية، كما قال تعالى: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** . . ﴾. وحديثنا في هذا البحث سيكون عن جانب مما تضمنته قصة يوسف عليه السلام ألا وهو الحسد الذي حذّر منه رسول الله ﷺ، وقال عنه «إنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أعاذنا الله منه ووقانا شرور أنفسنا إنه سميع مجيب.

١٥٨ ـ النهي عن الحسـد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـد:

فقد سبق الحديث عن التنويه بمنزلة القرآن العظيم في أول سورة يوسف كما قال تعالى: ﴿ **إنا أنزلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون۞ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين** ﴾.

وأشرنا إلى ما ذكره الإمام ابن كثير من وصف القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أحكام وقصص فيها أحكام وعظة واعتبار.

وفي قصة يوسف الكثير من تلك الأحكام ـ ومنها النهي عن الحسد وهو تمني زوال النعمة عن الغير.

وقد قال ﷺ: ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

يقول الله تعالى في هذه السورة في قصة يوسف مع إخوته: ﴿ **إذ قال يوسف لأبيه ياأبَتِ إني رأيتُ أحدَ عَشرَ كوكباً والشّمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين۞ قالَ يابنيّ لا تقصص رُؤْيَاكَ على إخوتِك فيكدوا لَكَ كيداً إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين۞ وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلّمكَ من تأويل الأحاديث ويتمُ نعمته عَليكَ وعلَى ءَالِ يعقوب كمَا أتمّها على أبويكَ من قبل إبراهيم وإسحاقَ إنّ ربكَ عليم حكيم** ﴾ / ٤-٦.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره، يقول تعالى: اذكر لقومك يامحمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذْ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب عليه السلام كما قال الإمام أحمد حدثنا عبدالصمد وساق بإسناده عن ابن عمر: أن رسول الله

ﷺ قال: الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب، ابن إسحاق بن إبراهيم»(١).

وقال البخاري: حدثنا محمد وساقه بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبيّ الله، ابن نبيّ الله، ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: **فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا**(٢).

وإن **الفقه** في الدين من أعظم النعم على المرء بعد الإسلام، ولهذا قال ﷺ «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. فإن مَنْ لم يفقه دين الله في جميع أموره، في عقيدته وعبادته، وفي الحلال والحرام، قد تزل به قدمه ويقع في عظائم لا تحمد عقباها. ولا يمكن أن يحصل المسلم على الفقه في دين الله إلا عن طريق التعلم والأخذ عن العلماء الراسخين في العلم العالمين بما يصلح أحوال الأمة في دينها ودنياها. وقد أساء إلى الدين من فصل بين الشباب وعلمائهم بتلبيسه عليهم بأن هؤلاء العلماء لا يفقهون إلا أحكام الحيض والنفاس، ولا يفهمون من واقع الأمة ومشكلات العصر شيئاً. وبئس ماقالوا وما صنعوا، والله يعلم، والواقع أثبت أنّهم كذبوا.

ونعود لقصة يوسف عليه السلام مع إخوته.

فقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس قوله «رؤيا الأنبياء حق».

قال: وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكباً عبارة

---

(١) المسند ٢/ ٩٦.

(٢) البخاري، كتاب التفسير ح٤٦٨٩.

عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه، روي هذا عن ابن عباس، والضحاك وقتادة وسفيان الثّوري وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم. وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبـويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه ﴿ **وخروا له سجدّاً وقال: ياأبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا** ﴾.

قلت: وهذا السجود على أيّ كيفية كان ليس شرعاً لنا. فتحية الإسلام، هي السلام والمصافحة، لا الإنحناء والسجود.

فلما سمع يعقوب عليه السلام من يوسف هذه الرؤيا خشي على يوسف إن قصها على إخوته أن يدب إليهم الحسد، فنهاه عن افشائها، قال تعالى مخبرا عن قول يعقوب: ﴿ **قال يَابُنيَّ لاَتقصص رؤياكَ على إخوتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كيداً إنّ الشيطَانَ للإنسان عدوٌ مبين** ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قيْلِ يعقوب لابنه يوسف حين قصّ عليه مارأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع اخوته له وتعظيمهم إيّاه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إكراماً واحتراما. فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل حَسَداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿ **لا تقصص رؤيَاكَ على إخوتك فَيَكِيدُوا لَكَ كيداً** ﴾ أي يحتالوا لك حيلةً يُردونك فيها.

ثم أعلمه ـ أن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين أي ظاهر العداوة لبني آدم، وقد أقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. بل قال: ﴿**لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين**﴾.

أيْ أن الشيطان سيدخلهم في ذلك الكيد ليوسف ويحضهم عليه. وقد كان ذلك.

ولهذا قال رسول الله ﷺ عن الرؤيا: إذا رأى أحدكم مايحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدّث بها أحداً، فإنها لن تضره(1).

هكذا كان توجيه النبي ﷺ ووصيته لمن يرى رؤيا يكرهها فلا يحدث بها أحداً. وليعمل ماأرشده إليه ولا تضره.

والحسد داء عضال، وهو تمنى زوال النعمة عن المحسود سواء كانت نعمة دين أو دينا.

فالله تعالى يقول: ﴿ **أم يحسدون الناس على مَاءَاتاهم الله من فضله** ﴾ وهكذا فإن إخوة يوسف عليه السلام حسدوه على مافضله الله به من النبوة.

كما قال تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف:

﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتبيكَ رَبُّكَ ويُعلّمُكَ من تَأويل الأحَاديث ويُتمُّ نِعمتَه عَلَيك وعَلى ءَالِ يَعقوبَ كَما أَتمَّهَا على أبَويْكَ مِنْ قَبْلُ إبْراهيمَ وإسْحاقَ إنَّ ربَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾.

أيْ كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿ **كذلك يَجْتَبيكَ ربك** ﴾ أيْ يختارك ويصطفيك لنبوته.

﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ قال مجاهد وغيره: يعني تأويل الرؤيا.

﴿ **ويتمُ نعمته عليكَ** ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك ولهذا قال: ﴿ **كما أتمها على أبويْكَ من قبلُ إبراهيم** ﴾ الخليل وإسحاق، ﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾ أي - أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(1) د/ الأدب، ماجاء في الرؤيا ح٥٠٢١. جه/ ح٣٩٠٨. المسند ٥/ ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٣.

كما قال تعالى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فإذا تمنى المسلم زوال النعمة عن أخيه المسلم سواء كانت نعمة دين أنعم الله بها على أحد عباده، أو نعمة دنيا من مال وصحة.

فهذا هو الحسد الذي حذر منه النبي ﷺ أمته، وبيّنَ لهم ضرره على دينهم من غير حصول فائدة تعود عليهم.

ففي حديث أبي هريرة الذي أخرجه أبو داود: أن النبي ﷺ قال: (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال العشب).

فعليك أيها المسلم أن تحذر هذا الخلق الذميم.

وإلى الوصية التالية لمواصلة الحديث عن هذه القصة المشتملة على العبر والمواعظ، فالله يقول ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ءايات للسائلين ﴾.



١٥٩ ـ أخـذ العـبرة من قصص القرآن

إن الحمـد لله نحمـده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين هاديا ومرشدا، وأمره بالصبر على الابتلاء والأذى. فخاطبه بقوله ﴿ فَاصْبِرْ كما صَبَرَ أُلوا العزم من الرُسل . . ﴾.

وقصّ عليه من أنباء الرسل، مافيه أسوة وقدوة.

ومن ذلك قصة يوسف عليه السلام، ذات العبر والمواعظ والأحكام يقول تعالى في ذلك:

﴿ لَقَـدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وإخوتِهِ ءَايَاتٌ للسَّائِلِينَ۝ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَـا مِنَّـا ونَحْنُ عُصبةٌ إِنّ أَبَانَا لفي ضَلالٍ مُبينٍ۝ اقْتُلُوا يُوسَفَ أَوْ اطْرحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أَبِيكُم وَتكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوماً صَالِحِينَ۝ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الجُبِّ يَلْتَقِطهُ بَعْضُ السَّيَارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾.

لقد اشتملت هذه الآيات على بداية القصة، وما عزم عليه إخوة يوسف، أن يصنعوه به ـ وهو الصغير الضعيف الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شراً ولو من شخص واحد، فكيف بجماعة أقوياء دبروا له هذه المكيدة.

وهي كذلك تتضمن أمورا عظيمة يجب على المسلم الاستفادة منها ويتجنب الأمور التي شملتها، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد وقلّة الرأفة بالصغير.

يقول الإمام ابن كثير في شرح هذه الآيات: «لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي ـ عبر ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه. **﴿ إِذْ قَالُوا ليوسف وأخوه أَحَبُّ إلى أبينا منّا ﴾**.

أي حلفُوا فيما يظنّون : والله ليوسف وأخوه ـ يعنون بنيامين وكان شقيقه. ﴿ **أحب إلى أبينا منَّا ونحن عصبة** ﴾ أيْ جماعة، فكيف أحبّ ذَيْنك أكثر من الجماعة. ﴿ **إن أبانا لفي ضلال مبين** ﴾ ـ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا. ولا يريدون بقولهم هذا، ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا، بل أرادوا لفي ذهـاب عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه(١).

ويقـول الإمام ابن كثير: «واعلم انه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك»(٢).

وقد عزموا على تنفيذ ما أضمروه من ابعاد يوسف عن أبيه حتى يخل لهم وجه أبيهم كما أرادوا.

فقالوا: ﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يَخْلُ لكم وجه أبيكم** ﴾.

يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه وأبعدوه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم. إما بقتله، أو تلقوه في أرض من الأراضي البعيدة تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم. وتكونوا من بعد اعدامه قوماً صالحين. قال ابن كثير: فأضمروا التوبة قبل الذنب.

وقال القرطبي : على هذا التفسير ـ وهذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم.

قلت : ويدل على قبول توبة القاتل عموم قوله تعالى : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفـوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾.

---

(١) القرطبي ٩/١٣١ .
(٢) ابن كثير ٤/٣٠٠ .

وحديث: الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً.

﴿ قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف ﴾ أي لاتصلوا في عداوته إلى قتله ـ قال قتادة ومحمد بن إسحاق ـ كان القائل أكبرهم.

قال ابن كثير: ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لابد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة ـ أخيهم ـ الأكبر روبل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله.

قال قتادة: وهي بئر ببيت المقدس.

﴿ يلتقطه بعض السَّيَّارة ﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله.

﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ أي، ان كنتم عازمين على ما تقولون.

وقد أورد ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق بن يسار قال: «لقد أجمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع ـ أي الضعيف ـ الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه على كبر سنه، ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً».

إن ما تضمنه هذا المقطع من الآيات الكريمة من سَيْر القصة ـ من التخطيط والكيد لانفاذ هذا الأمر العظيم الذي أجمعوا عليه كما حكاه الله عنهم ـ ثم اعترافهم بخطئهم كما سيأتي في آخر السورة، هو تحذير لك أيها المسلم من الاقدام

على مثل هذه الأمور العظيمة الضَّرَرِ، التي داعيها الحسد للآخرين على ما أنعم الله به عليهم، والحسد داء عضال يجر صاحبه إلى مثل هذه العظائم من الذنوب بين النّاس جميعا، ولكنه بين الأقارب أشد، لأن الله عز وجل أمر بصلة الأرحام.

والشيطان حريص على قطع ما أمر الله به أن يوصل، بكل وساوسه وطرقه، واقرأ ما قصّ الله في كتابه من قصة ابنيْ آدم، وكيف وصل بهما الحسد إلى قتل الأخ لأخيه.

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ بابلاغ ذلك: ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِم نبأ ابنَيْ ءَادَمَ بالحقّ إذْ قَرّبا قُرْبَاناً فتُقبّلَ مِن أحَدِهما وَلَمْ يُتقبّلْ مِنَ الآخر قال لأقتُلنّكَ قالَ إنّما يتقبّلُ الله مِنَ المتّقين* لئن بسطتَ إليَّ يَدَكَ لتقتلني مَا أنا بباسِطٍ يَدَيَ إليْكَ لأقتلَكَ إنّي أخافُ الله ربّ العالمين** ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ **فطوَّعتْ لَهُ نفسُه قتْلَ أخيهِ فقتله فأصبحَ مِنَ الخاسرين** ﴾.

قال الله بعد ذلك ﴿ **مِن أجْل ذَلك كَتَبْنا على بني إسرائيلَ أنَّه مَنْ قَتَلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قَتَلَ النّاسَ جميعاً ومن أحْيَاهَا فكأنّما أحْيَا الناس جميعاً . .** ﴾ المائدة / ٢٧ ــ ٣٢.

فهذه من نتائج الحسد الذي هو في الأصل تمني زوال النّعمة عن المحسود، فيجره الشيطان إلى ما هو أعظم من تمنّي زوال النعمة إلى ارتكاب الجريمة.

ثم تمضي الآيات الكريمة في سياق قصة يوسف عليه السلام واخوته وذلك بعد اجماعهم على الخطة وإحكامها، إلى الشروع في تنفيذها وهو ما سيأتي الحديث عنه ان شاء الله.

١٦٠ ـ مايترتب من آثام بسبب الحسد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد سبق الحديث في الوصية الماضية من قصة يوسف عليه السلام وإخوته، بيان إجماعهم على خطتهم في مكرهم وكيدهم ليوسف عليه السلام، من إلقائه في غيابة «الجب» وهي البئر ـ والمقصود به أسفل البئر. بدلاً من قتله.

وفي هذه الوصية سيكون الحديث عن كيفية شروعهم في تنفيذ تلك الخطة.

يقول الله تعالى قاصاً على نبيه ذلك الخبر، كما قال تعالى في أول السورة ﴿ **نحن نقصّ عليك أحْسَنَ القصص** ﴾ قال حاكياً قولهم لأبيهم: ﴿ **قالُوا يَأَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإنَّا لَهُ لَنَاصِحون • أرْسِلْه مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحافِظُون** ﴾ /١١-١٢ .

إن داء الحسد مرض فتاك، إذا دبَّ في شخص، أو جماعة ارتكبوا بسببه كل الموبقات التي أمامهم، ولو كان فيها سفك الدم الحرام، وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين، أو أيّ إثم، مادام ذلك العمل سيحقق للحاسد الوصول إلى مايريد، وقد وصف رسول الله ﷺ داء الحسد بالحالقة، قال: لا أقول تحلق الشعر، وإنما تحلق الدين، وما أكثر ما نشاهده ونسمعه يرتكب من أناس ضد آخرين أبرياء ـ لا ذنب لهم ـ إلا الحسد من هؤلاء، لما منّ الله به عليهم من نعمة العلم، أو المال، أو الجاه، أو الصحة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وإليك أيها القارىء الكريم ـ ماورد في قصة من أحسن القصص كما قال الله عنها لرسوله محمدٍ ﷺ ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص. . .** ﴾ .

إنها قصة يوسف عليه السلام مع اخوته الذين حسدوه على ما تفضل الله به عليه من اختيار واصطفاء، وحسن خَلْق وخُلق، وهو ما جعل والده يعقوب عليه السلام يخصه بمزيد من الرعاية والعطف والحنان دون أن يقصر في حقوق إخوانه الآخرين، فهو نبي يعطي كل ذي حق حقه.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير تلك الآيات التي اشتملت عليها تلك القصة لما تواطأ إخوة يوسف على أخذه وطرحه في البئر كما أشار عليهم أخوهم الكبير ـ حينما قالوا ـ ﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجْه أبيكم . .** ﴾ قال قائل منهم ﴿ **لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيَارة ان كنتم فاعلين** ﴾.

فلما أجمعوا على ذلك الأمر العظيم: جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام، فقالوا: ﴿ **يا أبانا مالك لا تأمنَّا على يوسف وإنَّا له لَناصِحُونَ** ﴾.

قالوا هذه التوطئة، ومنها النصيحة لأخيهم يوسف، وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد، لحبّ أبيه له.

﴿ **أرسله معنا** ﴾ أي أرسله معنا غدا نرتع ونلعب، وقرأ بعضهم: يرتع ويَلْعَبْ.

قال ابن عباس يسعى وينشط.

قلت: وهذه الآية يؤخذ منها توجيهات كريمة منها:

أولا: ان الأطفال في حاجة إلى اللعب الذي يفيد الطفل في نمو جسمه وعقله اللعب الذي ليس فيه من الأمور المحذورة ما يخشى عليه أن يعتادها.

ثانيا: ان من كان في سن من العمر التي لا تمكنه من دفع الشّر عن نفسه سواء كان الشر معنوياً، أو حسياً لا يجوز لوالده والمسؤول عنه السماح له بالخروج لأيّ جهة كان إلا مع رفقه مأمونة، سواء كان في بعثات أو رحلات، وإذا رجع

الوالد جانب الخوف على ابنه سواء كان الخوف على فكره وتوجهه، وهو المهم، أو على جسمه. فلا يأذن له، بل يأخذ بالأحوط.

فهذا يعقوب عليه السلام - وهو نبي يتردد في ارسال ابنه الصغير لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة وكمال الخَلْق والخُلق.

ومع تعهد إخوة يوسف له بحفظه ورعايته، كما قال الله عنهم:

﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾. قال: ﴿ **إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** ﴾. أيْ انه لصغر سنه قد لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الخطر، فقد يأتيه سبع فلا يستطيع دفعه عن نفسه.

ولكنهم لإمعانهم في الكيد ليوسف ولتنفيذ ما أجمعوا عليه قالوا لأبيهم لو حدث مثل هذا ليوسف فإنه دليل على عجزنا وخسارتنا.

يقول تعالى مخبرا عن ذلك قال - يعقوب - ﴿**قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكُلَه الذئب وأنتم عنه غافلون* قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون**﴾.

يخبر تعالى عن نَبيّه انه قال لبنيه في جواب ما سألوا من ارسال يوسف معهم إلى الرعي واللعب ﴿ **إني ليحزنني أن تذهبوا به** ﴾ أي يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لاتشعرون بذلك. وقال: فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة ﴿ **لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون** ﴾.

يقولون ـ لَئن عدا عليه الذئب فأكله ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون عاجزون. هكـذا قالـوا لوالـدهم، انهم يريدون ادخال السرور على أخيهم يوسف عليه السلام، متعهدين لأبيهم بحفظ أخيهم وإنه لن يناله مكروه، وهم يضمرون في أنفسهم خلاف ذلك.

ان يوسف عليه السلام قد واجه محنة وأذى من اخوانه بعد خروجهم به من عند والده عكس ما وعدوا به. وهو في السن التي لا يستطيع معها دفع الأذى عن نفسه، فهو صغير، واخوته جماعة قد دخل الحسد والحقد قلوبهم فدفعهم ذلك إلى الإجماع على ارتكاب تلك الجريمة التي هي:

١ ــ عقـوق والـدهم وهو في السّن التي يجب على الأولاد فيها أن يرحموا والـدهم الذي هو سبب وجودهم، وقد عظّم الله حق الوالدين. فقرن حقهما بحقه فقال: ﴿ **وقضى ربُّك ألّا تعبدوا إلا إياهُ وبالوالدين إحسانا..** ﴾. وقال: ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرَّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا...** ﴾ ثم هو نبي من الأنبياء يجب احترامه وتوقيره.

٢ ــ والجريمة الأخرى ما أجمعوا عليه من إلقاء يوسف عليه السلام ـ في الجّب ـ أي ـ البئر بعد ايذائه واهانته مع صغر سنه ـ وهو أخوهم ـ لا ذنب له، فلم يرتكب في حقهم شيئاً، وإنما الحسد هو الذي دفعهم إلى ذلك.

ولنقـرأ هذه الآية الكـريمة التي تبين هذا المعنى، ولما أثر عن السلف في تفسيرها لنأخذ من ذلك العبرة، فنتجنب عقوق الوالدين ـ وظلم الضعفاء.

يقول الله تعالى: ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾.

يقول الحافظ ابن كثير: فلما ذهب به اخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، واجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ـ قال ـ وهذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم

اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك ـ الجب ـ . وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراما له وبسطا وشرحا لصدره وادخالا للسرور عليه حيث قالوا له: أرسله معنا غداً يرتع ويلعب. قال ـ فيقال: ان يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبّله ودعا له. ثم قال: قال السدي وغيره:

إنّه لم يكن بين اكرامهم له، وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجبّ الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها «الراعونة» فقام فوقها.

قال الله تعالى: ﴿ **وأوحينَا إليهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرِهمْ هذَا وهُم لاَيَشْعُرُون** ﴾.

يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليُسْر في حال العسر انه تعالى أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضّيق، تطييباً لقلبه وتثبيتاً له: أنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجا ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويُعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصَّنيع.

قال قتادة :ـ وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليك.

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك. وهذا ما سيأتي توضيحه فيما بعد، وإنما هذا يعطيك أيها القارىء الكريم ـ الاهتمام بحق الأبناء والمحافظة عليهم في حال صغرهم، سنا وإدراكاً. ووجوب تجنب الحسد والظلم. فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ثم بيان ان العاقبة للمتقين.

١٦١ ـ حقوق الأبناء على الأباء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

أما بعد..

فإن للأبناء على الأباء حقوقا كثيرة، وبمراعاتها والقيام بها يتحقق للأباء مايريدون من أبنائهم من بر وإحسان.

وإن تعاليم ديننا الحنيف قد حثت على تلك الحقوق وبينت أن سلوك الأبناء وأخلاقهم وتوجهاتهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بسلوك الأباء وأعمالهم.

ومن نظر في السنة النبوية وجد العناية بتربية الأبناء تربية إسلامية منذ الصغر، بل منذ اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين. فقد قال رسول الله ﷺ: تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولنسبها، ولدينها، فأظفر بذات الدين، تربت يداك أو كما قال ﷺ.

فالمرأة ذات الدين تحفظ نفسها ومال زوجها، وتقوم بواجبها خير قيام ومن أهم واجباتها رعاية الأبناء وتربيتهم التربية الدينية، إذ هي المربية للطفل بعطفها وحنانها، وهو ملتصق بها في حياته منذ ولادته فيأخذ عنها ويسمع لها، ويقتدي بها وبأبيه ويقلدهما في جميع حركاتها وتصرفاتها ـ ولا عبرة بمن شذ أو خالف توجه والديه فالحكم للغالب.

ولهذا قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم...** ﴾.

قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو

ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟.

ثم يقول أبو هريرة: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم. والدين والفطرة: الإسلام.

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللْتُ لهم. مسلم ٢/٣٦٨.

وروى أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله بإسناده عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ماقتلوا المقاتلة، فبلغ رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: مابال أقوام يتناولون الذرية؟ فقال رجل: يارسول الله. أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: ان خياركم أبناءُ المشركين. ألا انها ليست نسمة تُولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها.

قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿ **وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...** ﴾ الآية.

ومعنى هذا أن المولود وُلد سليماً متجهاً إلى خالقه وفاطره، ولهذا فقد عنيت السنة النبوية بتنشئة المولود تنشئة دينية فقد ثبت عنه ﷺ قوله: مُروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع.

فهذا توجيه نبوي كريم ينبغي لكل أب أن يهتم به مع أبنائه ومن هم تحت يده.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم[1] قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» وفيه: والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعيةٌ ومسئولةٌ عن رعيتها. فهذا الحديث النبوي نص على مسئولية الأب عن أبنائه.

وكل فرد منا يهتم بأبنائه، ويحوطهم برعايته وعنايته، ولكن أكثر تلك الرعاية والعناية من الكثيرين منّا، تنصب على الناحية البدنية الجسمية. وعلى الناحية المادية الدنيوية وتأمين المستقبل لحياة دنيوية سعيدة، وهذا أمر فطري لا يمكن معارضته ولا دفعه.

ولكن الواجب الأول مع ذلك الاعتناء بالجانب الروحي الديني الشرعي الذي إذا صح وتحقق لصاحبه على منهج سليم تحقق له الجانب الدنيوي الذي نهتم به وهو أمر مضمون لكل مولود ولكن لابد من عمل السبب.

ففي حديث عبدالله بن مسعود - في صحيح مسلم - «إذا بلغت النطفة في الرحم مائة وعشرين ليلة، أُمر الملك بنفخ الروح فيها وفيه انه يؤمر بكتابة أربع كلمات، بكتابة رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...»

وهذا المقدر لَايتخلف، ولكن ليس معناه أن الإنسان لا يعمل ويتكل على هذا المقدر من رزق في الدنيا، وسعادة أو شقاوة في الآخرة.

بل على المسلم أن يعمل ويجتهد في الأمرين معاً، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، ولقول الله تعالى: ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ ولهذا فقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عند سماعهم لهذا الحديث، وقد كان همهم الآخرة قبل الدنيا، فقالوا: يارسول الله ففيم العمل:

---

(١) خ / الوصايا ح٢٧٥١ .
• مسلم / اماره ح ٢٠ .

هل في أمر قد فرغ منه، أو في أمر مستأنف، قال: بل في أمر قد فرغ منه ـ قال تعالى: ﴿ . . **فريق في الجنة وفريق في السعير**﴾ قالوا: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

وهذا الحديث النبوي الكريم يوضح لك أيها ـ المسلم ـ انه لابد من بذل الأسباب والعمل قدر الطاقة، وليس ذلك كل شيء إذا أنه لا يحصل لك إلا ما قدره الله عز وجل فالله يقول: ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** . . ﴾.

وكما سبق الحديث فإنه يجب على المسلم في تربية أبنائه ومن تحت يده، أن يهتم بالجانب الديني الذي فيه سعادة الفرد في الدين والدنيا معا.

كما يجب توجيه الأبناء ـ وكذلك الطلاب فهم أبناء المعلمين، والمعلمون قدوتهم في السلوك والتوجه فيجب عليهم ربط أبنائهم بكتاب الله عز وجل وبسنة رسوله ﷺ . وأن يقيدوا فهم نصوص الشرع من الكتاب والسنة بفهم سلفنا الصالح لمعاني تلك النصوص في الواقع العملي، فهم القدوة في العلم والعمل، والفهم والسلوك.

أما إذا خلت أحكامنا وسلوكنا وتوجهاتنا عن منهجهم وسلوكهم فسيحدث عندنا واحد من أمرين كلاهما مذموم في الكتاب والسنة وهما الغلو ـ والتفريط.

وهو ما سنتناول الحديث عنه في المبحث التالي إن شاء الله.

١٦٢ ـ التحـذيـر من الغـــلو

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بعــد :

فقد جاء في كتاب الله عز وجل، النهي عن الغلوّ، وهو مجاوزة الحدّ.

قال تعالى ﴿ **ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتَقُولُوا عَلَى الله إلاَّ الحقّ إنّما المسيحُ عِيسَى بنُ مريمَ رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فئَامِنُوا بالله ورُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثلاثة انتهوا خيراً لكُم إنّما الله إله واحدٌ سُبحانَه أن يكونَ لَهُ ولدٌ له مافي السموات ومافي الأرض وكفى بالله وكيلا** ﴾ النساء/ ١٧١ .

يقول الحافظ بن كثير في تفسير الآية ـ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والاطراء وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزا حَدّ التصديق بعيسى عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه، بل قد غلو في اتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ماقالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، وصحيحاً أو كذبا ولهذا قال تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ .. الآية.

وما ورد في هذه الآية من تحريم الغلو، وهو تجاوز الحد المشروع تحذير لهذه الأمة من أن يغلوا في دينهم وتجاوزوا ما حدده الشارع في أمور الدين كلها.

ولهذا حذر المصطفى ﷺ من ذلك، فقد روى البخاري من حديث ابن عباس سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر «سمعت النبي ﷺ يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله. ح ٣٤٤٥.

ان الغلو وهو مجاوزة الحد دخيل على تعاليم الدين الحنيف، فقد وصف الله هذه الأمـة بأنها أمـة وسط، والوسط هو الخيار والعدل قال تعالى: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾.

وأن المتأمل في تعاليم هذا الدين، واعتقاد هذه الأمة، وعباداتها ومعاملاتها يدرك أن الاعتدال والتوازن والتوسط أحد خصائص هذه الأمة التي تميزت بها عن الأمم السابقة.

فهي وسط بين الأمم، آخذة بالاعتدال والتوازن بعيدة عن طرفي الافراط، والتفريط والتقصير والجفاء، فكلاهما مذموم.

وكـما اتصف النصارى بالغلو كما سبق الحديث عنهم في أمر عيسى عليه السلام فإن اليهود قد اتصفوا بالتفريط في حكمهم على عيسى عليه السلام فهم بين غالٍ، وجافٍ، في الأمور كلها.

وإذا كانت تعـاليم ديننـا الحنيف تدعـو الأمـة إلى الاعتدال في أحكامها وسلوكها وكل شؤون حياتها ـ بل من خصائص هذه الأمة وسطيتها. فمن أين دخل على هذه الأمة الغلو والتوجهات المنحرفة عن سبيل هذه الأمة، التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.

ان من يعـود إلى أحداث التاريخ الإسلامي يجد أن هذه الأفكار الغريبة دخلت على الأمة الإسلامية من أعدائها. فقضى الإسلام بعدله على جور تلك الأديان المحرفة.

ثم عجز أولئك عن الوقوف في وجه الدين الإسلامي بالقوة، ومن هنا سلكوا مسالك، لهدم هذا الدين بأساليب أخرى، وقد رأو أن أنجع وسيلة للكيد له من داخله وبإسمه فدخل بعضهم في الدين الإسلامي لا حبا له ورغبة فيه، وإنما

للكيد له ولأهله ـ فأدخل هؤلاء وأمثالهم في الدين ما ليس منه.

وحتى يروج باطلهم على أذهان كثير من الناس ويقبل، أدخلوا تلك الأفكار المنحرفة البعيدة كل البعد عن تعاليم هذا الدين واعتداله ووسطية أمته باسم الدين والحرص عليه. ألا وهو الغلو فيه، وقد بدأه اليهود ـ فأدخلوا على ضعاف العقـول الغلو في الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وهم أتباع عبدالله بن سبأ ـ الذين وصل بهم الغلو في عليّ أن جعلوه إلها فسجدوا له.

وحين سألهم عن هذه الجريمة النكراء قالوا: أنت هو. أي الله عز وجل ـ فلم ير جزاءاً لذلك العمل إلا أن يحرقهم بالنار فَخَدّلهم أخدوداً ورماهم في النار وقد أثر عنه قوله:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناراً ودعوت قنبرا

وقد زادت فتنة أصحاب هذا الفكر المنحرف بذلك، حيث أوحى إليهم المخططون لهذا الانحراف الذي يصيب عقيدة المسلم في أساسها، أنه لا يحرق بالنار إلا ربّ النار. وقد حكم المسلمون على الفرقة السبئية بالخروج من الإسلام.

ثم انتقل عبدالله بن سبأ» إلى أسلوب آخر ليصل من ورائه إلى هدم الدين وذلك بالطعن في الذين تلقوه عن رسول الله ﷺ وبلغوه لنا بحرصٍ على تلقيه وأمانة تامة لإبلاغه كما تلقوه ـ ألا وهو كتاب الله عز وجل، الذي لم يفرط الله فيه من شيء.

وسنة رسوله ﷺ وهي الوحي الثاني، فرسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى. ﴿ **إن هو إلا وحيٌ يوحَى** ﴾.

والسنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية هي الشارحة والمبينة لكتاب الله ـ ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم . . .** ﴾.

فادعى «عبدالله بن سبأ» أن الصحابة رضوان الله عليهم، اجمعوا على كتم السنة التي فيها الوصية من رسول الله ﷺ لعليّ بالخلافة.

وبذلك حكم عليهم ـ بالكفر ـ لأنه حسب زعمه ـ أن الصحابة خالفوا أمر رسول الله ﷺ، مع أن علياً رضي الله عنه، قد سئل عن ذلك فأجاب بالنفي.

ومع هذا فقد تقبل هذه الأفكار المنحرفة كثير من الرعاع في زمن عثمان رضي الله عنه ـ وكان رأس الفتنة. هو «عبدالله بن سبأ» الذي ذهب إلى الشام وإلى مصر وإلى العراق يبث سمومه في الناس ويحرضهم على الخروج حتى حدثت الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه مظلوما.

ولازالت أفكار ذلك اليهودي الخبيث الماكر سارية في أفكار كثير من الناس كالباطنية والرافضة.

وأن الخارجين على عثمان رضي الله عنه، هم الخارجون على عليّ رضي الله عنه الذي تمت له البيعة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

يقول الحافظ أبو نعيم في كتابه ـ القيم ـ الإمامة والرد على الرافضة» ص. ٣٦.

فلما اختلف الصحابة كان على الذين سبقوا إلى الهجرة والسابقة والنصرة والغيرة في الإسلام الذين اتفقت الأمة على تقديمهم لفضلهم في أمر دينهم ودنياهم، لايتنازعون فيهم ولا يختلفون فيمن أولى بالأمر، من الجماعة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة في العشرة ممن تُوفي وهو عنهم راضٍ، فسلم من بقي من العشرة الأمر لعلي رضي الله عنه ولم ينكر أنه من أكمل الأمة ذكرا وأرفعهم قدراً لقديم سابقته وتقدمه في الفضل والعلم وشهوده المشاهد الكريمة يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله... الخ كلامه الجميل.

ثم في عهده رضي الله عنه خرج عليه الخوارج، وهم الخارجون على عثمان رضي الله عنه، فحينما أُعلن التحكيم بين علي رضي الله عنه ـ ومعاوية رضي الله عنه الذي كان يطالب بتسليم قتلة عثمان ـ وتقدم الأشتر قائد جيش علي، قالوا له إن لم تعد الأشتر وإلا صنعنا بك ما صنعنا بعثمان.

وهكذا فعلوا فقد خرجوا عليه وقالوا له: حكمت الرجال في كتاب الله. لا حكم إلا لله ـ فقال رضي الله عنه: كلمة حق أريد بها باطل.

فلما انحازوا إلى النهروان وسفكوا الدماء وقطعوا الطريق وعاثوا في الأرض فسادا قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معركة النهروان.

وقد أشار إلى هذه الفرقة المارقة حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه الإمام مسلم ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: تمرق مارقة في فرقة من الناس، فيلي قتلهم أولىٰ الطائفتين بالحق.

وفي رواية مسلم عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية. يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة.

فالذين وصفهم رسول الله ﷺ، بأنّهم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، هم: **بذرة الغلو**.

وكان أولهم الذي قال لرسول الله ﷺ: اعدل. فقال له رسول الله ﷺ: خبت وخسرت ومن يعدل إذا لم أكن أعدل. وقد قال عمر رضي الله عنه دعني يارسول الله فأقتل هذا المنافق فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي.

ان هذا وأصحـابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية هذه رواية جابر بن عبدالله في صحيح مسلم «ح ١٤٢ الزكاة» .

وفي رواية أبي سعيد ح١٤٣ . يقتلون أهل الإسلام . ويدعون أهل الأوثان . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرّمية . لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد .

ان هؤلاء الـذين خرجـوا على علي رضي الله عنه وكفروا الصحابة بسبب جهلهم ـ كان المفروض أن يتعلموا دين الإسلام وأحكامه من الصحابة الذين حضروا التنزيل وسمعوا من رسول الله ﷺ .

وهـذا ما سنتناول الحديث عنه في الوصية التالية لنربط بين ذلك الفكر، الغريب على الإسلام، والأفكار المنحرفة في عصرنا هذا المتمثلة في ابعاد الشباب عن العلماء ـ وذلك تبصيراً للشباب ونصحاً لهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ونفعاً للإسلام والمسلمين .

١٦٣ ـ وسطيــة هذه الأمـــــة

إن الحمـد لله نحمـده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الهادي إلى الصراط المستقيم.

أما بعــــد ..

فقـد سبق الحديث عن بيان أن هذه الأمة أمة وسط في جميع أعمالها ـ في عقائدها، وعباداتها، ومعاملاتها وسلوكها، وفي جميع شؤون حياتها فلا افراط، ولا تفريط وقد اختارها الله لذلك فقال: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونُوا شهداءَ على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾. والوسط هو العدل، الخيار.

كما أشرنا انه لا **غُلُو ـ ولا تقصير**. في تعاليم هذا الدين الحنيف، لأن الغُلُو ـ وهو مجاوزة الحدّ. جاء إلي هذه الأمة من أعدائها. فالغلو ـ من أخلاق النصارى، فهم الذين غَلَوْ في دينهم حتى رفعوا المسيح عليه السلام عن منزلة النبوة التي أكرمه الله بها. إلى الألوهية التي ردها المسيح عليهم، وقال: ﴿ **إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً** ﴾ .

وقال: ﴿ **لقد كفر الذين قالُوا أن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدُوا الله رَبّي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ المائدة / ٧٢ .

وقال تعالى: ﴿ **يا أهل الكتاب لاتغُلو في دينكم ولاتقولُوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فـئامنوا بالله ورسُله ولاتقولُوا ثلاثة انتهوا خيرٌ لكم إنما الله إلهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات ومافي الأرض وكفىَ بالله وكيلاً** ﴾ النساء/ ١٧١ .

ثم إن الجفاء والتفريط من أخلاق اليهود، فهم قتلة الأنبياء، وأهل الحط من شأنهم، فقد ادعو على المسيح عليه السلام انه ابن زنى، ثم ادعوا أنهم قتلوه وصلبوه.

وقد ورد النهي في الشريعة الإسلامية عن الغلو، في جميع الأمور فقال ﷺ : «لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله».

وسبقت الإشارة ـ إلى أن أوّلَ من أدخل الغُلوّ على عقائد المسلمين اليهود، لقصد إفساد عقائد المسلمين كما أفسد بولس عقائد النصارى. وإظهار الفتن في صفوفهم ـ لعلمه إن ذلك الغلوّ لن يقبل عند علماء الشريعة. لأن هذه الأفكار دخيلة على الإسلام، وبذلك يحصل الخلاف بين الرعاع المعتنقين لهذه الأفكار، وبين العلماء، وهذا ما يريده المغرضون المفسدون، وقد تحقق لهم بعض ما يريدون بل لازالت تلك الأفكار الفاسدة سارية عند كثير ممن ينتسبون للإسلام.

وقد ذكرنا طرفاً من أفكار الخوارج الذين قال عنهم رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حينما استئذنه في قتل الرجل الذي قال لرسول الله «اعدل» فقال له رسول الله: ويلك ومن يعدل إن لم أعدل. فقال عمر يارسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه. قال رسول الله ﷺ دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتهم. وصيامه مع صيامهم. يقرءون القرآن. لا يجاوز تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. رواه مسلم ح ١٤٨ الزكاة.

وهؤلاء هم، الخارجون على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد وصفهم رسول الله ﷺ ـ بحفظ القرآن حتى أن الصحابة رضوان الله عليهم يحقرون قراءتهم مع قراءتهم، وكذلك سائر عباداتهم من صوم وصلاة ولكنه وصفهم

بالجهل وعدم الفقه في الدين ـ فقراءتهم لا تتجاوز الصوت المتردد في الحنجرة إذ لا يفقهون من القرآن حكما.

ومن أين لهم الفقه فيه، وقد كفروا الصحابة الذين سمعوا من رسول الله ﷺ القرآن والسنة، وكان المفروض أن يتعلموا الفقه في الدين منهم.

إن هؤلاء هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب الخليفة الراشد رضي الله عنه. وهم الذين قالوا له ـ حكمت الرجال في كتاب الله ـ لا حكم إلا الله. وقد قال لهم: كلمة حق أريد بها باطل.

أيها القارىء الكريم ـ ألقِ إليّ سمعك، فسأعقد لك مقارنة قصيرة، بين أفكار الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه ـ وهم ـ الذين خرجوا على عثمان بنص كلامهم. مع ذكر أمثلة ـ من فهمهم لنصوص كتاب الله، وتنزيلها على المسلمين ـ مع أنها نزلت في الكفار. وبيان سبب ذلك الجهل بأحكام تلك النصوص.

وبين الأفكار المعاصرة التي يدعى أصحابها فهم نصوص كتاب الله وسنة رسوله، وفهمهم لتعاليم الإسلام، وواقع الأمة وتنزيل تلك النصوص على المسلمين. وبيان سبب ذلك.

ونبدأ بالخوارج :

تعريف الخوارج ـ ذكر العلماء: ان كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان» الملل ١١٤.

وأول من خرج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه جماعة ممن كان معه في حرب صفين، وأشدهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين كما سبق وصفهم في حديث رسول الله ﷺ : الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدك

التميمي، وزيد بن حصين الطائي، حين قالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف، حتى قال: أنا أعلم بها في كتاب الله.

فقالوا له: لترجعنّ الأشتر عن قتال المسلمين، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان. الملل ١١٤.

وهذا القول منهم صريح بأنهم هم الخارجون على عثمان رضي الله عنه بدفع من الخبيث الماكر عبدالله بن سبأ.

ومن زعم أن بعض الصحابة خرج على عثمان رضي الله عنه، فقد غلط غلطا فاحشاً ـ وإنما الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا يقدمون النصيحة لعثمان وغيره، قبله وبعده، امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: الدين النصيحة ثلاثاً قيل لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ولم يثبت أن صحابياً حاصر دار عثمان وسلّ سيفه عليه ـ بل الثابت أن الصحابة وقفوا في وجوه هؤلاء الرعاع، ومنهم من يقول: طاب الضرب ـ إلا أن عثمان رضي الله عنه عزم عليهم أن لا يسفكو فيه دماً.

يقول الإمام أبو نعيم رحمه الله في كتابه «الامامة والرد على الرافضة» ص٣٣١:

وأما إعلالهم بترك انكار الصحابة رضي الله عنهم على من حصروه، فلقد شرعوا إلى الإنكار عليهم واستعدُّوا لمدافعتهم ومقاتلتهم ولكن لم يظهر القوم قتله وإنما أظهروا المعيبة... إلى قوله: ولقد أنكروا وبالغوا ثم ذكر عددا منهم، ولم يكن لهم أن يستبدوا برأي في أمرهم، إلا بأمر من خليفتهم وكان يمنعهم من ذلك ويعزم عليهم أن لا يراق فيه محجم من دم.

ونعود لذكر أقوال الخوارج فقد قالوا لعلي رضي الله عنه:

١ ــ لا حكم إلا لله ـ وقد حكمت الرجال في كتاب الله. فقال: كلمة حق أريد بها باطل ـ فالحكم لله ـ والرجال إنما يحكمون بها في كتاب الله.

٢ ـ ثم انتقلوا لما هو أدهى من ذلك: فحكموا بجهلهم على الصحابة بل على خيارهم بالكفر فكفروا عثمان وعلياً وغيرهما.

٣ ـ والدليل على غلوّهم وجهلهم، ماذكره ابن الجوزي في كتابه «تلبيس ابليس ص٩١» عن ابن عباس رضي الله عنه حينما أرسله علي لمناظرتهم، وقد رجع منهم أربعة آلاف.

قال في وصفهم: «فدخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أر قط أشدّ منهم اجتهاداً، جباههم قرحة من السجود، وأيديهم كأنها ثفن الإبل - يعني كركبة البعير لما يحصل فيها من الغلظ من أثر البروك - وعليهم قمص مرحضة مشمرين مسهمة وجوههم من السهر».

قلت: وهذا معنى قول رسول الله ﷺ في الحديث السابق لعمر رضي الله عنه تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم.. الحديث ولكنه قال عنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، وذلك بجهلهم بكتاب الله، وسنة رسوله - لتركهم التّفقه على الصحابة، ثم تكفيرهم لهم.

ومما زادوه بجهلهم ما ذكره ابن حجر في فتح الباري...

قال: وقد زاد نجدة الخارجي على معتقد الخوارج في تكفير المسلمين:

- ان من لم يخرج ويحارب المسلمين فهو كافر ولو اعتقد معتقدهم.
- وأبطلوا رجم المحصن.
- وقطعوا يد السارق من الإبط.
- وأوجبوا الصلاة على الحائض حال حيضها.
- ومرتكب الكبيرة كافر. وكفوا عن أموال أهل الذمة، وعن التعرض لهم مطلقا.
- وفتكوا بمن ينتسب للإسلام بالقتل والسبي والنهب.

ولو وقفنا قليلاً عند هذه الأفكار الشاذة، والمعتقدات الفاسدة، لوجدنا أن سبب اعتناقها والقول بها هو الجهل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم ماهو سبب الجهل هذا: إنّه ابتعاد هؤلاء عن أخذ العلم والفقه في الدين عن أهله، وهم الصحابة رضوان الله عليهم الذين حضروا التنزيل، وسمعوا من رسول الله ﷺ .

بل انهم تجاوزوا الابتعاد عن الصحابة إلى تكفيرهم، فإذا كان الصحابة عندهم كفار، فممن يأخذون العلم والفقه في الدين.

ان هذه الأفكار الشاذة أو أكثرها هي التي تُبعث في هذا العصر ويعتنقها كثير من الشباب الذين يجهلون أحكام الإسلام، والمغرضون يحُولون بينهم وبين الجلوس إلى العلماء للأخذ عنهم، بأساليب أعداء الإسلام، وهو ما سنتحدث عنه في الوصية التالية إن شاء الله.

١٦٤ ـ التَّفقُّه في الدين قبل الدعوة إليه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـــــد:

يقول الله تعالى: ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ التوبة/١٢٢.

ويقول رسول الهدى ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » رواه البخاري.

إن منهج أهل السنة والجماعة في الدعوة والتوجيه هو طلب العلم والتفقه في الدين أولاً.

ثم الدعوة إليه على بصيرة، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو الله على بصيرة أنا ومن اتبعني...** ﴾.

فأتباع الرسول وهم صحابته، ومن سلك سبيلهم يتبعون ما تضمنته هذه الآية الكريمة.

فالسبيل هو المنهج وهو الطريق الموصل إلى الخير، إذ لا سبيل منجٍ من الهلاك إلا ما جاء به الرسول من كتاب وسنة.

﴿ **وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله..** ﴾. والبصيرة هي العلم.

والعلم لايمكن تحصيله وفهمه والعمل بما فيه إلا عن طريق العلماء الراسخين في العلم، المعروفين بعلمهم وسلوكهم تطبيقاً لما تعلموه عمليا، لأخذ القدوة بهم ومنهم.

فقد كان الصحابة لا يتجاوزن عشر آيات حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل وهكذا يكون أتباع السلف بإحسان، يتبعون ذلك المنهج الذي رسمه لهم سلفهم، وكل من سلك ذلك المسلك تحقق له بإذن الله ماوعد الله به عباده المؤمنين العاملين الصالحات.

وكل مسلم يعلم أن دين الإسلام الذي استظلت البشرية بعدله انتشر من هذه البلاد، فهي مهبط الوحي ومنبع النور. وذلك على يَدِ من بعثه الله رحمة للعالمين جميعا.

وقد قام بإبلاغه من بعده أصحابُه الكرام، ومن تبعهم بإحسان. فقبله الناس على اختلاف مللهم ونحلهم، ودخلوا في دين الله أفواجا لأنه دين الفطرة، وقد أظهره الله على الدين كله، ورضيه لعباده. ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾.

وقد وعد الله عباده المؤمنين به، المخلصين له العبادة، المصدّقين بما جاء في كتابه لمن آمن وعمل صالحا بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم، للقيام بما أوجبه الله عليهم، من عبادته وحده وإقامة شرعه ونصر دينه والله لا يخلف الميعاد، كما قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ الله الذينَ آمنوا منكُم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلهم وليمكننّ لَهُم دينهُم الذي ارتضى لَهُم ولِيُبدلَنّهُم من بَعدِ خَوفِهِمْ أمْناً يعبدونني لا يشركونَ بي شَيئاً. وَمَنْ كَفَر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ النور/٥٥.

ان الحكمة من إيجاد الإنس والجن هي عبادة الله وحده، وتلك العبادة بجميع أنواعها تحتاج إلى التمكين في الأرض. وهذا الوعد من الله عز وجل مشروط بالايمان به وحده، وعمل الصالحات وقد أتمه الله عز وجل للسابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، المتصفين بأكمل هذه الصفات.

وهـو وعد لمن اتبعهم بإحسان، فآمن وعمل الصالحات وأحسن في اتباع منهج سلفه الصالح، عقيدة وعبادة وسلوكا.

وبحمد الله، فقد تمسكت هذه البلاد بذلك المنهج واتبعت سبيل المؤمنين، عقيدة، وعبادة، ومعاملات وأخلاقا وسلوكا.

فأتم الله لها وَعدَه الذي وعد به المؤمنين العاملين الصالحات فأبدلها بالخوف أمناً واستقراراً، وبالفقر غنىً، وبالتفرق والشتاتِ والعداوة والبغضاء إخاءً ومحبة وتعاونا.

وهذا ماذكره الله عز وجل ممتناً به على الأوس والخزرج رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتِهِ إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها. . .** ﴾ آل عمران/١٠٣.

وكان سبب ماحدث بين الأوس والخزرج من خلاف، وذكرهم الله بنعمته هذه، من الحاسدين الحاقدين للمؤمنين، على ماأنعم الله به عليهم من الألفة والمحبة والإخاء.

وإن المُعَمَّرين من آبائنا يعرفون ما كان عليه أحوال هذه البلاد، من تفرق، وخلاف، وحروب، وعداء بين القبائل المتجاورة فجمعهم الله على الحق، بدعوة الحق، وسلوك منهـج عبـاد الله الصالحين، ففتح الله عليهم أبواب نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأهمها بعد الإيمان بالله الأمن والاستقرار، الأمن على الأنفس والأموال، والاستقرار الناشيء عن قيام هذه البلاد التي مكّن الله لها في الأرض، بتطبيق شرع الله، ونصرة دينه، وإقامة حدوده على عباده، كما شرع الله وأمر، وتلك هي حقوق الإنسان في أجلى صورها وحُسْن تطبيقها وتنفيذها، لأنها من عليم حكيم ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾.

فقد أنزلها الله في كتابه وعلى لسان رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، وذلك

لينعم المجتمع في ضلها بالأمن على دمه، وماله، وعرضه.

ومعلوم ـ أن كل ذي نعمة محسود، وقد سبق لنا الحديث عن حسد إخوة يوسف ليوسف عليه السلام لا لذنب ارتكبه في حقهم، وإنما حسداً لما أنعم الله به عليه من خَلق وخُلق، واجتباء واصطفاء واختيار. وكانت العاقبة الخيّرة له، فإن العاقبة الحميدة دائماً للمتقين.

وما أنعم الله به على هذه البلاد من أمْنٍ واستقرار، وما فتحه عليها من خزائن فضله، بسبب تمسكها بكتاب ربها وسنة نبيها في جميع شؤون حياتها، هو من فضل الله وكرمه، ووفاءً بوعده لمن آمن به وعمل الصالحات.

فلم يقترف أهل هذه البلاد عموماً لا حاكمين ولا محكومين ذنباً في حق الناس، بل يقدمون للآخرين على اختلاف مشاربهم كل ما يستطيعون ماديا ومعنوياً، ولكن غاض أعداء الإسلام ما تستمتع به هذه البلاد من الأمن والاستقرار الذي بوجوده انتشر التعليم في هذه البلاد فشمل بعد المدن القرى والهجر. كما انتشر العمران، وهو الأمر الذي يقاس به تقدم البلاد في جميع نواحي الحياة.

فَقبْلَ خمسين عاماً أو أقل، إذا أرادَ شخصان كَتابَةَ وثيقةٍ بينهما، يذهبان من قرية إلى قرية للبحث عمن يكتب بينهما تلك الوثيقة أو قِراءَتَها.

والآن في القرى، بل والهجر يوجد ذلك القارىء والكاتب بل كبير السن في باديته وبين ماشيته إذا جاءته رسالة تقرؤها له ابنته.

هذا مثال واحد لانتشار التعليم، والعلم هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع في جميع شؤون حياته ديناً ودنيا.

فالجامعات يتولى فيها التدريس أبناؤها، وكذلك جميع المراحل والمرافق الأخرى.

وما نذكره ويذكره غيرنا إنما هو تَذكيرٌ للغافل، والله يقول: ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدّث** ﴾. فيجب على الآباء تذكير الأبناء بماضيهم، ليشكروا الله على حاضرهم.

لأن أعداء هذه البلاد ـ بل أعداء الإسلام، لتمسك هذه البلاد به وتطبيق أحكامه والدعوة إليه ـ قد امتلأت قلوبُهم حقداً وحسداً وبغياً، فحاولوا النيل منها من خارجها بكل وسائلهم، فلم يستطيعوا.

فلجوءا للكيد لها من داخلها علّهم ينالون منها، والنيل منها نيل من دين الإسلام، فهذه بلاد الإسلام ومنشأوه، فهي مهبط الوحي. ومنبع الرسالة.

والـذين مكنهم الله فيها قائمون بشرع الله ونصر دينه، والله يقول ﴿ **ان تنصروا الله ينصركم** ﴾.

ولهذا فقد سلك هؤلاء المغرضون مسالك السابقين في الإضلال والافساد. ومن ذلك:

أولا: محاولـة فصل الشباب عن العلماء. فالشباب أصحاب عواطف لم يجربوا الأمور، وقلوب بعضهم فارغة تتقبل كل ما ألقي فيها، ولم يجلسوا إلى أهل العلم والفقه في الدين. فنظم لهم هؤلاء ـ الندوات، والمحاضرات، والكتيبات والنشرات التي تثير العواطف بحب الإسلام، دون معرفة أحكام الإسلام فإذا قرأ الشاب هذه الجملة في كتاب قيادي ونصها: «البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يرددون لا إله إلا الله بلا مدلول وواقع وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذاباً يوم القيامة لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد»(١). فبماذا يحكم الشباب الذين لا يعرفون نصوص الشريعة في مثل هذا الحكم على البشرية كلها بالردة حتى المؤذنون.

---

(١) الظل ٢/١٠٥٧.

ثم أُلقيَ في روع هؤلاء الشباب ـ ان هؤلاء العلماء لا يفقهون من واقع الأمة شيئاً وإنما هم علماء فتوى في الحيض والنفاس ـ وعلماء السلاطين.

وأخيراً: الحكم بكفر أفضل العلماء ـ فإلى من يرجع هؤلاء الشباب الذين اعتنقوا هذه الأفكار ـ وقد حيل بينهم وبين العلماء بنزع الثقة منهم.

إن هذا هو فكـر الخوارج الذين كفروا الصحابة ـ فلم يبق لهم مرجعاً في الدين إلا أصحاب الأهواء ـ فحكموا على المسلمين كلهم بالكفر إلا من كان على منهجهم بشروط.

ـ أيها القارىء الكريم ـ إن المسؤولية على الجميع في المحافظة على عقول النـاشئـة من هذا الانحراف الفكري الخطير ـ على الأب، والمعلم، ومن يُعدّ المناهج واقرأ قول المصطفى ﷺ كما في صحيح مسلم: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة وفي رواية بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها.

ولم يرد حديث ولو موضوعاً أن الإسلام يأرز إلى الغرب ودول الغرب، وإنما يأرز إليها الكفر والضلال.

١٦٥ ـ وجـــوب بـــر الوالـــدين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـــا بعــــد :

فقد سبق حديثنا في المباحث السابقة عن قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وقد أخذنا منها وصايا مهمة ـ منها وجوب البر بالوالدين ـ فإن إخوة يوسف عليه السلام ـ قد عقوا والدهم النبي الكريم ـ بالإساءة إليه وذلك بما خططوا له وأجمعوا على تنفيذه ـ وهو أخذ يوسف من أبيهم بما سولت لهم أنفسهم حَسداً ـ ليوسف لما أنعم الله به عليه من خَلْق وخُلق واجتباء واصطفاء فقد عزموا على قتله ـ ثم صرفهم أحد إخوانهم، بإلقائه في الجب بدلا من القتل وقد أجمعوا على ذلك كما حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿ **فَلما ذَهبُوا بِهِ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب** ﴾.

قال الإمام ابن كثير هذا فيه تعظيم لما فعلوه، انهم اتفقوا كلهم على القائه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره وادخالاً للسرور عليه.

حيث قالوا له كما قال الله عنهم ﴿ **أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون** ﴾.

وقد قال السدى وغيره انه لم يكن بين اكرامهم له، وبين اظهار الأذى له إلا أن غابـوا عن عين أبيه وتـواروا عنه ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شَتْم ونحوه والفعل من ضرب ونحوه ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلّوه فيه فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه وإذا تشبث

بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة . . الخ ماذكر في القصة .

كما يُؤخذ من هذه القصة وجوب الاهتمام بحقوق الأبناء والمحافظة عليهم في حال صغرهم سناً وإدراكاً ـ لأن صغير السن لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه .

كما أن الصغير ـ قد يجد من ينحرف به عن المنهج السليم وادخال الأفكار المنحـرفة عليه وقد تحدثنا عن ذلك في وصية سابقة والتي كانت بعنوان حقوق الأبناء على الآباء وأشرنا إلى أن الظلم ظلمات يوم القيامة ـ وأن العاقبة دائما للمتقين .

وفي هذه الوصية والتي بعدها سنواصل الحديث عن هذه القصة التي قال الله عنها لنبيه محمد ﷺ ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ .

وذلك لأخذ العبر والأحكام والتوجيهات التي تنفع المسلم في حياته العملية في الدنيا ولأخذ الثواب عليها في الآخرة .

يقول الله تعالى في ذلك ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئّنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون* وجاءوا أبَاهم عشاءً يبكون* قالـوا ياأبـانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يُوسف عندَ متَاعنَا فأكلَه الذّئبُ وما أنتَ بمؤمن لنا ولو كنا صادقين* وجاؤا على قميصه بدمٍ كَذبٍ قال بل سولتْ لكم أنفسكُم أمراً فصبر جميل والله المستعانُ على ماتَصِفُون** ﴾ ١٨/ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره :

يقول تعالى مخبرا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجبّ ـ وهي البئر ـ : انهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة اللّيل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغمّمون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا : ﴿ **إنا**

ذهبنا نستبق ﴾ أي نترامى، ﴿ **وتركنا يوسف عند متاعِنا** ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا، ﴿ **فأكله الذئب** ﴾ وهو الذي كان جزع منه وحذر عليه. وهو قوله لهم ﴿ **إني ليحزنني أن تذهبُوا بِهِ وأخافُ أنْ يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون** ﴾. وقد أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ولهذا قالوا ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين** ﴾ وهو تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه لتبرير ماصنعوه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك. لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله، فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

هكذا ادعوا ويبقى عليهم تقديم الحجج والبراهين التي تثبت صدقهم، وتبرر موقفهم من أبيهم النبي الكريم كما وصفه المصطفى ﷺ ولنسمع لهذه الحجة التي جاءوا بها ولنأخذ منها العبرة بأن كل جريمة يرتكبها صاحبها في حق غيره ظلما وعدواناً، ان الدليل على كذبها هو نفس الدليل الذي يقدمه ليبرأ نفسه به؛ وهكذا أعذار الظّالم دائما يظهر الله زيفها وكذبها من حيث لا يشعر صاحبها.

يقول تعالى مخبراً عن تلك الحجّة الواهية قال: ﴿ **وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب** ﴾ أيْ مكذوب مفترىً، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ماتمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة ـ وهي ولد الشاة من المعز والضأن ذكراً كان أو أنثى ـ فيما ذكره مجاهد والسدى وغيرهما من أهل التفسير ـ فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه ـ ولكنهم نسو أن يُخرّقوا الثوب. فتبين بذلك كذبهم ـ كيف يأكل الذئب يُوسف ولا يخرق ثوبه.

فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه قال ﴿ **بل سولتْ لكم أنفسكم أمراً**

فصبرٌ جميل ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ **والله المستعانُ على ما تصفون** ﴾ أي على ماتذكرون من الكذب والمحال.

فعن ابن عباس في قوله ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبي وقتادة وغير واحد.

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه كما قال مجاهد.

وفي حديث مرسل ـ عن حبان بن أبي جبلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الصبر الجميل، فقال: الذي لا شكوى فيه.

وذكر ابن كثير عن عبدالرزاق: قول الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك.

أيها القارىء الكريم ـ ان مما يؤخذ من هذه القصة من العبر والتوجيهات والوصايا الحكيمة الصبر الجميل عندما تنزل بالمسلم نائبة من نوائب الدهر سواء بفقد ولد أو قريب أو مصيبة في مال أو عرض أو غير ذلك من الأمور التي قضاها الله عز وجل وقدرها على عباده، فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يوماً وأربعين ليلة ثم يكون علقه مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد... الحديث.

فما على المسلم عند وقوع القضاء والقدر إلا الصبر والتسليم، والرضاء بما كتب الله على عبده، فإن أمر المسلم والمقدر عليه كله له خير، وقد جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: عجباً لأمر المسلم ان أمره كله خير ان أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وان أصابته سرّاء فشكر كان خيراً له.

وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله في تفسير سورة يوسف عليه السلام حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في الافك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون** ﴾.

فقد ابتليت رضي الله عنها من المنافقين بما هي منه بريئة فصبرت فبرأها الله بقرآن يتلى إلى يوم القيامة.

وهكذا يعقوب عليه السلام أبتلي بفراق ابنه يوسف عليه السلام، فصبر الصبر الجميل ولم يشكُ حزنه إلا إلى الله. حيث قال: ﴿ **إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون** ﴾.

فهذا حال يعقوب عليه السلام مع أولاده وعقوقهم له بتلك المؤامرة على أخيهم يوسف عليه السلام الذي لم يقترف في حق اخوانه ذنباً.

فما حاله وهو الصغير السن وقد رماه اخوته في «الجب» ورجعوا إلى أبيهم عشاءً يبكون على يوسف ويدعون أن الذئب أكله.

هذا ما سنتحدث عنه ان شاء الله في الوصية التالية فإلى ذلك الحديث.

١٦٦ ـ بيـان حـال يـوسف وهـو فـي الجـب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـــا بعـــد :

فلا زال حديثنا موصولا عن قصة يوسف عليه السلام، لأخذ العبرة والعظة من أحداثها.

وقد سبق الحديث ـ عن رميهم ليوسف عليه السلام في الجب ـ ورجوعهم إلى أبيهم عشـاء يبكون معتذرين لأبيهم بدعوى أن الذئب أكله. وقد اتضح لأبيهم كذبهم كما قال تعالى: ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ ولهذا قال لهم: ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾. فهذا حالهم مع أبيهم.

أما يوسف عليه السلام فقد حكى الله ما جرى له بعد أن ألقاه اخوته في الجب فقال تعالى ﴿ **وجاءتْ سيارةٌ فأرسَلُوا وَارِدَهُم فَأَدْلَى دَلْوَهُ قال يابُشْرى هَذَا غُلام وَأَسَرُّوه بِضَاعَةً والله عَلِيمٌ بما يَعْمَلُون• وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾/ ١٩ ــ ٢٠ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: يقول الله تعالى مخبراً عمّا جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته. وتركوه في ذلك الجبّ فريداً وحيداً فمكث ثلاثة أيام ـ فيما قاله أبو بكر بن عياش.

وقـال محمـد بن إسحاق: لمّا ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يَصنع وما يُصنع به، فساق الله له سيّارة، فنزلوا قريبا من تلك البئر ـ وأرسلوا واردهم ـ وهو الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء تلك البئر وأدلى دلوه فيها.

تشبث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿ **يابشرى هذا غلام** ﴾. وقوله: ﴿ **وأسروه بضاعة** ﴾ أي وأسَرَّهُ الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد والسدى وابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله ﴿ **وأسروه بضاعة** ﴾، يعني إخوة يوسف، أسَرُّوا شأنه، كتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسفُ شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره اخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿ **يابشرى هذا غلام** ﴾ يباع فباعه إخوته(1).

إن ما يأخذه المسلم ولاسيما الداعي إلى الله مما جرى ليوسف عليه السلام وما آل إليه أمره - ان النصر المؤكد دائما للحق وأهله، وأن العاقبة الحميدة للمتقين، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ، بعد أن ذكر عددا من الأنبياء، ومنهم يوسف عليه السلام، وبيان ماجرى لهم من أقوامهم، وما قاموا به في دعوتهم وأنه تعالى ءاتاهم الحجج القاطعة على أقوامهم، فبين أنهم على الهدى والحق وأنه ينبغي الاقتداء بهم قال تعالى: ﴿ **أولئك الذين ءاتيناهم الكتابَ والحُكم والنبوةَ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسُوا بها بكافرين* أولئكَ الذين هدى الله فبهداهم اقتده. . .** ﴾ ٨٩/٩٠ الأنعام.

وقوله: ﴿ **والله عليم بما يعملون** ﴾ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومُشْتروْه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمض ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. كما أن فيه وعيد شديد لمن كان فعلُه سببا لما وقع فيه يوسف عليه السلام من المحن وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا ﷺ في وصفه بذلك.

(١) ابن جرير الطبري ج١٢ / ص١٦٩ .

ثم يقول ابن كثير: وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلام له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الانكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم اجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على اخوته.

وتتابع الآيات الكريمة بيان ماجرى ليوسف عليه السلام في هذه المرحلة من كيد إخوته له.

يقول تعالى: ﴿ **وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة** ﴾. أي: وباعه إخوته بثمن قليل. قاله مجاهد وعكرمة. والبخس هو النّقص، كما قال تعالى: ﴿ **فلا يخاف بخساً ولا رهقاً** ﴾ أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دُون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أيْ: ليس لهم رغبة فيه بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله «وشروه» عائد على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائد على السَّيَّارة.

قال ابن كثير: والأول أقوى، لأن قوله: ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ إنما أراد إخوته، لاَأُولئك السّيارة لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في «وشروه» إنما هو عائد على إخوته. لأن لفظ ـ الشراء ـ من الأضداد، وهو يمدّ ويقصر ـ وقد شرى الشيء يشريه شراءً، إذا باعه وإذا اشتراه، قال الله تعالى: ﴿ **ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله** ﴾ أي يبيعُها. ومنه هذه الآية ﴿ **وشروه بثمن بخسٍ** ﴾ أي باعوه[1].

والمراد بالبخس الناقص، أي: انهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان، ولهذا قال: ﴿ **دراهم معدُودة** ﴾ فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما،

(١) مختار الصحاح مادة: شرى.

وكـذا قال ابن عبـاس، ونـوف البكالي، والسدي وقتادة وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

ثم مضى سياق الآيات في بيان ما قيضه الله تعالى ليوسف من اللطف به في تخليصه من إخوته الذين عزموا على قتله أولاً، ثم ألقوه في البئر ثانيا، ثم أصبح يباع بثمن بخس، وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم كما قال عنه رسول الله ﷺ.

وهذا يبين لك أيها المسلم، أن المؤمن قد يُبْتَلى فإذا صبر كانت له العاقبة الحسنة.

يقـول تعالى مخبرا بما جرى ليوسف عليه السلام بعد أن بيع على السَّيَّارة بدراهم معدودة ـ وهذا دليل على قلتها، فإنها تُعدُّ لقلتها، ثم ذهبوا بهِ بضاعَةً إلى مصر لبيعه.

قال تعالى: ﴿ **وقال الذي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامرأتِهِ أكرمي مَثْوَاهُ عسَىَ أن ينفَعَنَـا أو نتخـذَهُ ولـداً وكذَلك مَكّنا ليُوسفَ في الأرْضِ ولِنُعَلّمَهُ من تأويل الأحـاديث والله غالب عَلَى أمْرِهِ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لاَيَعْلَمون۝ وَلَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ ءاتيناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكذلِكَ نَجْزي المُحْسنينَ** ﴾ /٢٠-٢٢ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى بالطافه بيوسف عليه السلام أنه قيّض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصَى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته ﴿ **أكرمي مثواه عَسَى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها.

وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته ﴿ **أكرمي مثواه** ﴾. والمرأةُ التي قالت لأبيهـا ﴿ **ياأبت استـأجـره إن خير من استأجرت القَويُّ الأمين** ﴾. وأبو بكر

الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[1].

ثم يخبر تعالى عن جزاء المحسنين في الدنيا قبل الآخرة، وهو وإن كان السبب خاصاً فإن اللفظ عام يشمل كل محسن فيقول ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** ﴾ فالأرض بلاد مصر، والإشارة إلى ما تقدم من انجائه من إخوته وإخراجه من الجب، وعطف قلب العزيز عليه، أي مثل ذلك التمكين البديع مكنَّا ليوسف حتى صار متمكنا من الأمر والنهي، ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ قال مجاهد والسدى: هو تعبير الرؤيا. ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يُرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه ﴿ **ولكنّ أكثر النّاسِ لا يَعلمون** ﴾. أي: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه لما يريد.

ثم قال: «ولما بلغ» أي يوسف عليه السلام «أشده» أي استكمل عقله، وتم خلقه، ﴿ **آتيناه حكماً وعِلْماً** ﴾ يعني النبوة، انه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ **وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولياً. وكذلك كل محسن.

هذا وسنواصل الحديث ان شاء الله لبيان ماجرى ليوسف عليه السلام في بيت العزيز. ثم في السجن ليأخذ من ذلك الداعية إلى الله الصبر على الأذى في الله، ولينظر المنهج الذي سلكه يوسف عليه السلام في دعوته وهو منهج الأنبياء جميعاً في دعوتهم لاصلاح مجتمعاتهم والله الهادي إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الطبري ٢١/١٦.
• ابن كثير ٣٠٦/٤.

١٦٧ ـ بيـان حـال يوسف عليه السلام في بيت العزيز

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمــا بعــــد:

فلا زال الحـديث عن قصـة يوسف عليه السـلام، وذلـك لأخـذ العـبر والتوجيهات الكريمة والوصايا النافعة الحميدة التي يستفيد منها المسلم في حياته العملية ولاسيما الدعاة إلى الله عز وجل. فقد شملت هذه القصة ألوانا من الأذى لنبي كريم فقابل ذلك بالصبر الجميل.

فلما أن انتهى من كيد إخوته له، من إلقائه في الجب، ثم بيعه على السَّيَّارة الذين هيئهم الله لانقاذه ـ من تلك البئر، وقد وفدوا به إلى مصر بضاعة فباعوه ـ على العزيز، عزيز مصر، وهو الوزير بها، وقد أكرم مثواه لما توسمه فيه من الخير والفلاح. حيث قال لامرأته ﴿ **أكرِمي مثوَاهُ عَسَى أن ينفَعَنا أو نتخذَهُ ولداً..** ﴾.

لم ينتـه من تلك المحنـة إلا وتـواجهـه محنـة أخرى. وقد ورد في الحديث الصحيح إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

هذه المحنـة والابتلاء في هذه المرحلة جاءته من قبل النساء وكيدهنّ وقد وصف الله كيدهنّ بأنه عظيم. فكيف كان موقفه من تلك الفتنة.

يقـول الله تعـالى في ذلك ﴿ **وَرَاوِدَتْهُ الّتي هُوَ في بيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغلّقتْ الأبـوابَ وقـالَتْ هَيْتَ لَكَ قَال مَعـاذَ الله إنّـهُ رَبّي أحْسَنَ مَثْـوايَ إنَّهُ لايفلحُ الظَّالِمُون** ﴾ /٢٣.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية: يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجُها بِه وبإكرامه، ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ أيْ: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبتْهُ حبًّا شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿ **وقالت هَيْتَ لك** ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع. وقال ﴿ **معاذ الله إنّه ربّي** ﴾ وكانوا يطلقون (الرّب) على السّيد والكبير.

أيْ: إن بعلك رَبّي أحسن مثوايَ، أيْ، منزلي، وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله. إنه لا يفلح الظالمون. أي: لايظفر الظّالمون بمطالبهم، ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية.

إن مقابلة الإحسان بالإحسان من عمل الكرام، ويوسف عليه السلام قد وصفه رسول الله ﷺ بذلك، فقال: انه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

وأما مقابلة الإحسان بالسوء فهو من عمل اللئام.

ولك أيها المسلم في أنبياء الله ورسله وأتباعهم القدوة الحسنة، وقد جاء في صحيح البخاري، أنّ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ولاشك أن امرأة العزيز ذات منصب. ولكن الله عز وجل عصم يوسف عليه السلام من الوقوع في شباكها.

يقول تعالى: ﴿ **ولقد همّت به وهَمَّ بها لَولَا أن رأى بُرهانَ ربّهِ كَذلِكَ لنصْرفَ عنه السّوءَ والْفَحْشَاءَ إنّه مِنْ عِبادِنَا المُخْلَصِينَ** ﴾ /٢٤.

لقد اختلفت أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ وقد بين المحققون الصواب في ذلك وهو: أن هم امرأة العزيز كان هم عزم وتصميم - بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعهـا من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه. ومثل هذا التصميم على المعصية: معصية يواخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يارسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: انه كان حريصاً على قتل صاحبه».

فصرح ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.

وهمّ يوسف عليه السلام ماهو إلا خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى وهذا لا معصية فيه، لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف كما في الحديث عنه ﷺ: انه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك، يعني ميل القلب الطبيعي.

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم.

وقد قال ﷺ : «من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة، لأنه ترك ماتميل إليه نفسه بالطبع خوفا من الله، وامتثالاً لأمره، كما قال تعالى: ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النّفسَ عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى** ﴾.

وقد هم بنو حارثة وبنو سلمة بالفرار يوم أحد، كَهمّ يوسف هذا، بدليل قوله تعالى: ﴿ **إذْ هَمّتْ طائفتانِ منكُم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ لأن قوله: ﴿**والله وليهما** ﴾ يدل على أن ذلك الْهمَّ ليس معصية.

وقد أورد صاحب أضواء البيان الروايات الواردة في ذلك في كتب التفسير ثم قال: قال مقيده ـ عفا الله عنه : ـ

هذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين:

قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه.

وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء، من ذلك، فالظاهر الغالب على الظّن، المزاحم لليقين: أنه إنما تلقَّاه عن الإسرائيليات، لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ.

قال: وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بشيء مما نسب إليه اعتمادا على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ماتلوح عليه لوائح الكذب، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها ـ لأن ذلك على فرض صحته، فيه أكبر زاجر لعوام الفساق. فما ظنك بخيار الأنبياء. مع أنَّا قدمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة[1].

وقوله ﴿ **لولا أن راى برهان ربه** ﴾ أورد المفسرون أقوالاً كثيرة في البرهان الذي رآه: قال ابن جرير رحمه الله: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله مازجره عما كان همّ به.

وقد نقل ذلك ابن كثير. وقال الشوكاني: والحاصل انه رأى شيئاً حال بينه وبين ذلك.

وقوله: ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ أي: كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السُّوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿ **انه من عبادنا**

(١) أضواء البيان ٣/٥٦ ـ ٦٨.

المخلصين ﴾ أي : المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار. صلوات الله وسلامه عليه.

ثم تختم الآيات ماحدث في هذا المقام بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام والذي سنتحدث عنه ان شاء الله ونأخذ العبرة منه في الوصية التالية وهو قوله تعالى : ﴿ **واستبقَا البابَ وقدت قميصَهُ مِنْ دُبُرٍ وألْفَيا سَيِّدَها لَدَى البَاب قَالتْ ماجزاء مَنْ أرَادَ بأهلِكَ سُوأً إلاَّ أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليمٌ* قَالَ هِيَ رَاوَدَتْني عَنْ نفسي وَشَهِـدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِهَا إنْ كَانَ قَميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقت وَهُوَ مِنَ الكَـاذِبِـينَ* وَإنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُر فكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فلَمَّا رءَا قميصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إنّهُ مِنْ كَيدِكُنَّ إنّ كَيْدَكُنَّ عظيم* يُوسُفُ أعرض عَنْ هَذَا واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إنّكِ كنت مِنَ الخاطِئين** ﴾ /٢٥ـ٢٩ .

١٦٨ ـ المحافظة على كرامة الأسرة ومكانتها بالمحافظة على المرأة وصيانتها

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعــد..

فلا زال حديثنا عن قصة يوسف عليه السلام وما شملته من توصيات وتوجيهات حكيمة وكريمة، فكل ماجاء موافقا لشرعنا فهو شرع لنا. وإن شريعتنا الإسلامية السمحة قد شملت تعاليم وتوجيهات ووصايا عظيمة، تحافظ على كرامة الأسرة ومكانتها، وتحفظ لها قيمها وأخلاقها، ومن أهم ذلك المحافظة على عرض المرأة وصيانتها وابعادها من الاختلاط بالأجانب الذي قد يجر إلى أمور محظوره لا تحمد عقباها.

فقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، قوله ﷺ: ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

ولهذا فإن في قصة يوسف عليه السلام مايوضح لنا أن ما جاء في شرعنا في هذا الجانب وغيره. يدل المسلم ويبين له سمو هذه الشريعة وكمالها وصلاحها لكل ما يحتاج إليه المجتمع، فقيام الأسرة السعيدة الصالحة واستقامة المجتمع وتماسكه، لا يقوم إلا على الطهارة والعفة التي تحفظ الأنساب وتصون الأعراض.

وما حدث من امرأة العزيز، مع يوسف عليه السلام، مكّنها من الاقدام عليه ومحاولة تنفيذه ـ الخلوة ـ التي جاء في شرعنا التحذير منها بل شدد المصطفى

ﷺ في ذلك وحذّر أشد التحذير وهو ما سنورد الأدلة عليه بعد ذكر قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام. مع أن شرائع الأنبياء جميعا متفقة على الأصول ومنها المحافظة على الأعراض وبناء الأسرة على الطهارة والعفة كما في الوصايا العشر. ولنقرأ هذه الآيات الكريمة التي تبين ماحدث من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام حين حدث التساهل في هذا الجانب من العزيز قال تعالى: ﴿ وراوَدَتْهُ التي هُو في بيتِها عن نَفْسِهِ وغَلَّقَتِ الأبوابَ وقَالَتْ هيتَ لَكَ قال معَاذَ الله إنّه رَبّي أحْسَنَ مَثْوايَ إنّهُ لا يُفلحُ الظّالمونَ ﴾.

ان هذه الآية الكريمة تبين لك أيها المسلم وجوب التمسك بوصية رسول الله ﷺ، وهي النهي الشديد عن خلوة الرّجل بالمرأة الأجنبية، ولا فرق في ذلك بين الخادم أو غيره.

ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن دخول ـ الحَمْو ـ على المرأة ـ والحمو هو قريب الزوج كالأخ وابن العم وغيرهما فقال ﷺ: الحمْو الموت.

فقد روى البخاري في كتاب النكاح / باب لا يخلُوّن رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المُغيبة». والمقصود بالمُغيبة ـ من غاب عنها زوجها.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إيَّاكم والدخولَ على النساء، فقال رجل من الأنصار: يارسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: لا يخلونّ رجل بامرأة إلا مع محرم. فقام رجل فقال: يارسول الله امرأتي خرجت حاجة واكْتَتبْتُ في غزوة كذا وكذا قال: ارجع فحجّ مع امرأتك. ح٥٢٣٢، ٥٢٣٣.

ان تعاليم هذا الدين قد بلغت الذروة في الاهتمام بحقوق المرأة وأهم شيء صيانتها والمحافظة على كرامتها واعطاءها حقوقها كاملة كما شرع الله لها ذلك في كتابه، ووضحه رسول الله ﷺ في سنته، ومن الاهتمام بها وحمايتها وصيانتها

والوصية بها ماجاء في حديث ابن عباس هذا الذي رواه البخاري ومسلم.

فرسول الله ﷺ حينما نهى أن يخلو الرجل بالمرأة إلا مع ذي محرم قال ذاك الرجل ـ ان زوجته ذهبت للحج ـ والحج طاعة لله فهي تؤدي فريضة وهي صحابية.. ثم إن زوجها قد كتب في غزوة في سبيل الله، ومع ذلك أمره ﷺ أن يترك الغزو، ويعود ليرافق امرأته في الحج لأنه ليس لها محرم يرافقها ويحافظ عليها.

ثم حديث عقبة بن عامر الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إيّاكم والدخول على النساء ـ وهذا تحذير منه ﷺ لأمته.

فحين سأل الأنصاري رسول الله ﷺ عن ـ الحمو ـ وهو قريب الزوج. قال: الحمو الموت.

وقد جاء في رواية ابن وهب عند مسلم قال: سمعت الليث يقول: الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه.

ومما يوضح أن احماء المرأة هم أقارب الزوج قول عائشة رضي الله عنها: ما كان بيني وبين علي إلا ما كان بين المرأة وأحمائها.

يقول الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث: المراد في الحديث ـ بالحمو ـ أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، لأنهم محارم للزوجة يجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت، قال: وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابن العم، وابن الأخت ونحوهم مما يحل لها تزويجه لو لم تكن متزوجة. قال: وجرت العادة بالتساهل فيه فيخلو الأخ بامرأة أخيه فشبه بالموت، وهو أولى بالمنع من الأجنبي».

أيها المسلم هكذا جاءت وصية رسول الله ﷺ فيجب علينا الأخذ بها والمحافظة عليها ففيها شرَفُنا وكرامتنا، وقد أمرنا الله بذلك فقال تعالى: ﴿ **وما ءاتَاكُم الرسول فخذوهُ وما نهاكم عنهُ فانتهوا...** ﴾.

وقد تطابقت آراء العلماء في شرح الحديث على ذلك المعنى . فقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن عدد من العلماء في شرح الحديث هذا المعنى فقال: وقال القرطبي في «المفهم» المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة، أي: فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عنه وشبهه بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لالْفِهم بذلك حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة، فخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت والحرب الموت، أي لقاؤه يفضي إلى الموت وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين، أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج، أو إلى الرجم ان وقعت الفاحشة.

أيها القارىء الكريم : إذا كان هذا التحذير الشديد من المصطفى ﷺ ، من قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وعمه الذين قد يلحقهم ما يضر بسمعة قريبهم.

فكيف **بالأجنبي** كالخادم والسائق وغيرهما، انه لا يسوغ التسامح في ذلك، فلنحذر ما يضر بديننا وأخلاقنا، ولنتمسك بهدى نبينا، ولنأخذ من قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام المعصوم من الله من ارتكاب تلك المعصية، التي خططت لها بكيدها فقد دعاها شيطانها ونفسها الأمارة بالسوء إلى ذلك العمل.

وقد كان من أسباب تزيين سوء عملها **الخلوة**، التي حذرنا منها نبينا فقال: إياكم والدخول على النساء، وقال: ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

ولنقرأ الآيات التالية لتكملة القصة لنأخذ منها العبرة والحيطة، يقول الله عز وجل في ذلك بعد أن ذكر امرأة العزيز ومراودتها ليوسف واغلاقها الأبواب: قال: **﴿ واسْتَبقَا البابَ وقَدّتْ قميصَهُ من دبرٍ وألْفَيا سَيّدها لَدَا الباب قالَتْ مَاجَزاءُ مَنْ أرادَ بأهْلِكَ سوءاً إلاّ أنْ يَسْجَنَ أوعَذَابٌ أليمٌ۝ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْني عَنْ نفْسِي وَشَهِـدَ شَاهِـدٌ مِنْ أهْلِهَـا إنْ كَانَ قَميصُـهُ قُدَّ من قُبـلٍ فصَـدَقَتْ وَهـوَ مِنَ**

الكَاذِبِينَ ﴾ . يعني ـ أنها هي التي تدافع عن نفسِها وهو المعتدي عليها .

قال ـ ﴿ وانْ كَان قميصُه قُدَّ مِن دُبُر فَكَذَبَتْ وهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ يعني : انه هاربٌ منها وهي تتبعه حتى أخذت بقميصه من خلفه فقدته أي قطعته من شدة أخـذها . . ﴿فلمَّا رأى قميصه قُدَّ من دبرٍ قال إنه من كيدِكُن إن كيدَكُنّ عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين﴾ .

وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله .



١٦٩ ـ : الوصية بالمحافظة على المرأة صيانة لكرامتها

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بعــد :

فقد سبق في الوصية الماضية حديثنا عن وصية رسول الله ﷺ بصيانة المرأة والحفاظ على كرامتها، وذكرنا بعضاً من الأحاديث النبوية التي تحض على ذلك وتأمر به.

ومنها قوله ﷺ : ماخلا رجل بإمرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

وقـولـه ﷺ : إياكم والـدخول على النساء، فقال له الأنصاري : أرأيت الحمو؟ ـ يعني قريب الزوج كالأخ وابن العم ونحوهما قال: الحمو الموت، وقد بيّنا معنى ذلك بما قاله العلماء رحمهم الله في شرح الحديث وبيان معناه، والسبب في ذلك الزجر الشديد من ذلك الاختلاط.

بل ان من حرص الـرسـول ﷺ لحماية المرأة وصيانتها إنه حين ذكر ذلك النهي، قام رجل فقال: يارسول الله ان امرأتي ذهبت للحج، وقد كتبتُ في غزوة كذا وكذا. فأمره الرسول ﷺ بترك الغزو وأن يعود لمرافقة زوجته التي خرجت للحج دون محرم. كما في البخاري ومسلم.

وقد أخذنا العبرة في ذلك من قصة امرأة العزيز وما حدث منها مع يوسف عليه السلام، فقد ساعدها على التفكير في تنفيذ خطتها، الخلـوة بيوسف عليه السـلام، فدعاها شيطانها ونفسها الأمارة بالسوء، إلى أن تغلق عليها الأبواب وتدعوه إلى نفسها، فأبى واستعصم عليه السلام.

وحينما انكشف أمرها ـ لسيدها ـ وهو زوجها ـ حولت الدعوى بمكرها وكيدها على يوسف عليه السلام، وأنه هو الذي راودها عن نفسها وهو البريء من ذلك ـ كبراءة الذئب من دمه ـ كما سبق ذكر محنته مع إخوته ـ وهو الآن يصارع محنة أخرى.

وكما أنجاه الله عز وجل من كيد إخوته ـ فقد عصمه الله من كيد امرأة العزيز وأظهر براءته وهذه من المحن التي يبتلي الله بها عباده الصالحين، ثم تكون العاقبة الحميدة لهم، وفي هذا عبرة وإرشاد لمن ابتلي بشيء من ذلك أن يأخذ من صبرهم وتحملهم، الاقتداء بهم في ذلك كله، فإن العاقبة للمتقين.

يقول الله تعالى في بيان قصة يوسف مع امرأة العزيز، وكشف الأمر للعزيز وبيان براءة يوسف مما رمته به.

قال تعالى ﴿ **واسْتَبَقَا البَابَ وقدّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وأَلْفَيا سيدها لَدَى البَابِ** ﴾. ـ وسيدها هو زوجها ـ فقَلَبت الأمر وادّعَتْ على يوسف، انه هو الذي يريدها بسوء. ﴿ **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بأَهْلِكَ سُوءًا إلاّ أَنْ يُسجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَليمٌ** ﴾. هكذا ادّعتْ، وهكذا اقترحت، إما السّجن، أو الضرب الشديد الموجع.

ولم يكن من يوسف عليه السلام والحالة هذه، إلا أن يَدْفَعَ عن نفسه بالحق ويتبرأ مما رمته به من الخيانة، فقال باراً صادقاً ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ **فذكر** أنها هي التي دعته إلى نفسها وحين امتنع وانصرف هاربا منها، اتّبعته وجذبته إليها حتى قدّتْ قميصه.

وهنا جاءت الشهادة التي فيها ما يوضح من واقع الحال براءة يوسف، ودليل ذلك أن قميصه الذي يلبسه قد قطع قطعا عظيماً من خلفه وحسب دعواها أنها تَدْفع يوسف عن نفسها لأنه يريد الاعتداء عليها.

وقـد بين الله ذلك الموقف بينهما، وبراءة يوسف عليه السلام مما رمته به. فقال: ﴿ واسْتَبقَا البَابَ وقدّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وألْفَيا سيدها لَدَى البَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أرَادَ بأهْلِكَ سُوءًا إلاّ أنْ يُسجَنَ أوْ عَذَابٌ أليمٌ* قال هي راودتني عن نفسي ﴾.

فالآية الكـريمة تصور لنا ماحدث ـ وهو السباق بينهما إلى الباب فيوسف عليه السلام خرج هارباً منها، وهي تتبعه حتى جذبت قميصه من خلفه فقطعته.

ولما وجدت زوجها عند الباب وهي في تلك الحالة ـ حولت الدعوى بكيدها ومكـرها وقوة سلطتها ومكانتها ـ على يوسف عليه السلام الضعيف في مركزه، القويّ في إيمانه المعتمد على ربه وخالقه، فادعت أنه هو الذي يريد بها السوء، أيْ عمل الفاحشة.

ثم بينت الآية دفاع يوسف عن نفسه والتبرأ من الخيانة التي رمته بها، وأنها هي المراودة له عن نفسه، لأنه محافظ على المعروف والرعاية التي قدمها له العزيز، فقد قال: ﴿ معاذ الله إنّه ربّي أحْسنَ مَثْواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾.

ثم تختم الآيات ببيان براءة يوسف عليه السلام، وذلك بأداء تلك الشهادة أمام زوجها.

قال تعالى: ﴿ . . . وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِهَا إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَـدَقَتْ وَهُـوَ مِنَ الكـاذبينَ* وَإنْ كَانَ قَميصُه قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ من الصَّادِقِينَ* فَلَمَّا رَأَى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إنّهُ مِن كَيْدِكنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ* يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هذا واسْتَغْفِري لِذَنْبِكِ إنّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئينَ ﴾ /٢٦ـ٢٩ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره[1] : يخبر تعالى عن حالهما حين

---

(١) ٤/ ٣٠٩ .

خرجا يستبقانِ إلى الباب يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قداً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهبا وهي في إثره، فألفيا سيدها ـ وهو زوجها ـ عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿ **ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً** ﴾ أي: فاحشة ﴿ **إلاّ أن يُسجن** ﴾، أي يحبس، ﴿ **أو عذاب أليم** ﴾ أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً.

فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال باراً صادقاً: ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قَدّت قميصه.

وهنا تأتي الشهادة ببراءته يقول تعالى: ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قَميصُه قُدَّ من قُبل** ﴾ أي: من قدّامه، فصدقَتْ في قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه، دفعته في صدره فقدت قميصَه، فيصح ماقالت. ﴿ **وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ وذلك يكون كما وقع، لمّا هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه.

ولما تبين لسيدها ـ أي زوجها ـ وهو العزيز براءة يوسف عليه السلام مما رمته به امراته، وإنها هي التي راودت يوسف عن نفسه، وذلك بما سمعه من الشاهد، ثم واقع الحال المطابق للشهادة.

أصدر رأيه في القضية وهو مادل عليه قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأى قَميصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ** ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به. ﴿ **قال انّه من كيدِكُنَّ** ﴾ أي ان هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكنَّ ﴿ **انّ كيْدكُنّ عظيمٌ** ﴾ ولكن ماهي النتيجة بعد ما اتضح الأمر للعـزيز ـ انه اتجه إلى يوسف عليه السلام وطلب منه ستر ما وقع وكتمانه فقال

﴿ **يوسف أعرض عن هذا** ﴾ أي : اضرب عنه صفحا فلا تذكره لأحد. ثم قال لامرأته ﴿ **واستغفري لذنبك** ﴾ أي : الذي وقع منك من ارادة السوء بيوسف ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ **إنكِ كنتِ من الخاطئين** ﴾ وهكذا تكون العاقبة الحميدة للمتقين في الدنيا ـ ثم في الآخرة ينال الأجر العظيم الذي وعد الله به من عفّ نفسه عن الحرام خوفاً من الله.

فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظلّه.» ومنهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله[1].

وهكـذا فقد تحقق هذا في يوسف فإن امرأة العزيز تتصف بذلك، ولكنه امتنع خوفا من الله.

وهكذا انتهى هذا الموقف بين العزيز وامرأته، ببراءة يوسف عليه السلام ـ وقد دعى العزيز إلى كتمان هذا الأمر واخفائه. ولكن الأمر شاع وانتشر في المدينة لا من طريق يوسف عليه السلام ولكن من طرق أخرى.

قال تعالى: ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّاً إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ الآيات ـ وهو ما سنكمل الحديث عنه في وصية قادمة ان شاء الله لنأخذ العبر والتوجيهات الكريمة من كتاب الله عز وجل.

---

(١) البخاري ـ الآذان / باب من جلس ينظر الصلاة. وفضل المساجد ١/١٦٨.
• مسلم / الزكاة / باب فضل اخفاء الصدقة ٣/٩٣.

١٧٠ ـ منهج الأنبياء الدعوة إلى توحيد الله في كل أحوالهم وهكذا يجب على رجال الدعوة والتوجيه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أما بعــــد . .

فلا زال حديثنا في قصة يوسف عليه السلام، لأخذ العبر والعظات والفوائد التي تضمنتها .

فقد سبق الحديث عن براءة يوسف عليه السلام مما رمته به امرأة العزيز، وقد تحقق فيه عليه السلام، قول رسول الله ﷺ سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ومنهم: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله .

ومع تلك البراءة التي نالها بشهادة الشاهد من أهلها أمام العزيز، وثبوت ذلك عند العزيز لظهور الدلالات الواضحة على براءته ـ وقد طلب العزيز من يوسف عليه السلام كتم ذلك الأمر حيث قال له كما أخبر الله عن ذلك ﴿ **يُوسف أعرض عن هذا** ﴾ وقال لزوجته ﴿ **استغفري لذنبكِ إنّكِ كنتِ من الخاطئين** ﴾ . وقد شاع الأمر لا عن طريق يوسف عليه السلام، وإنما من جهات أخرى .

إلا أن العادة جرت بأن الضعيف في أعين الناس يجتمع الظّلمة على هضم حقه ـ تزلفا وتقرباً إلى الأقوياء، وهذه سنة الله في خلقه .

ولنقرأ قول الله عز وجل في ذلك يقول تعالى: ﴿ **ثُمَّ بَدَا لَهُم مِن بَعدِ مَا رَأوْا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّه حتَّى حِينٍ** ﴾ ٣٥.

يقول ابن كثير ـ يقول تعالى: ثُمَّ ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات ـ وهي الأدلة ـ على صدقه في عفته ونزاهته. فكأنهم ـ والله أعلم ـ إنّما سجنوه لّما شاع الحديث، إيهاماً أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك.

ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض صلوات الله عليه وسلامه.

ان هذا النبي الكريم ابن الكريم كما وصفه رسول الهدى محمدٌ ﷺ بذلك. قد تنقل في هذه المحن التي ابتلى بها من محنة إلى أخرى فما أن نجى مما عزم عليه اخوته من قتله، إلا انتقل بعد العبودية والرق لتلك المحنة من امرأة العزيز وقد عصمه الله منها وظهرت براءته ـ وقد تمكنت امرأة العزيز من مراودته عن نفسه فاستعصم بالله فعصمه الله من كيدها العظيم.

وقد أشرنا في وصية سابقة إن من أسباب تمكنها الخلوة التي ورد النهي الشديد عنها في تعاليم الشريعة الاسلامية النقيّة المحافظة على العرض ـ فقد نهت عن خلوة الرجل بالمرأة ولو كان قريب الزوج من أخ وابن عم فكيف بالرجل البعيد.

بل شددتْ السنة في ذلك، فقد قال ﷺ: ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

ثم إن يوسف عليه السلام بعد براءته وظهور الأدلة على ذلك، يدخلونه السجن. وهي محنة أخرى ثم يمكث فيه تلك المدة مظلوماً.

ولكنه وهو النبي المعصوم، صاحب رسالة ودعوة، وقد ثبت عنه ﷺ قوله: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. فيوسف عليه السلام لم يضق صدره بذلك ولم يتخلَّ عن منهجه وابلاغ دعوته، بل أصبح السجن مكاناً للدعوة والتوجيه ـ الدعوة إلى توحيد الله واخلاص العبادة له، والنهي عن الشرك وعبادة الأوثان.

يقول الله تعالى في ذلك ﴿ **وَدَخَل معه السّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أحَدُهُما إنّي أرَاني أعْصِرُ خمراً وَقَالَ الآخَر إنّي أراني أحْملُ فَوقَ رَأسِي خُبزاً تأكل الطّيرُ مِنْهُ نبّئنَا بتأويلِهِ إنَّا نَرَاكَ من المحسنين** ﴾ /٣٦.

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبّازه.

وقال السدى: وكان سبب حبس الملك اياهما، أنه توهم أنهما تمالأ على سَمِّه في طعامه وشرابه.

يقول الإمام ابن كثير ـ وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السّجن بالجود والأمانة والصدق في الحديث، وحسن السّمت وكثرة العبادة صلوات الله وسلامه عليه. ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم.

ان هذه الخصال الحميدة أيها القاريء الكريم يجب على كل مسلم التخلق بها والمحافظة عليها وتطبيقها قولاً وفعلاً، ولاسيما رجال الدعوة والتوجيه. حتى يستفيد منهم المدعو ويقبلها بل ويحبها ويسعى في الحصول عليها والسماع ممن يدعو إليها.

فإن بذل المعروف، والأمانة والصدق، والإحسان إلى الناس ومواساتهم وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم خصال حميدة، وقد كان لنبينا محمد ﷺ النصيب الأوفى منها.

ولك أيها المسلم في أنبياء الله ورسله قدوة حسنة.

أما إذا خالف الداعية هذه الخصال الحميدة وأصبح يخالف فعلُه قولَه ولم يسلك في دعوته ومنهجه الحكمة والموعظة الحسنة ولم يرفق بالناس بل سلك الشدة والفظاظة فإن أول من ينفر عنه أصحابه وأقاربه كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُم ولو كنت فظاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفضُوا من حَولِكَ... ﴾ آل عمران/ ١٥٩.

فيوسف عليه السلام قد تحلى بذلك كله مع العلم والحلم والبصيرة فلما وثق فيه أصحاب السجن أحبوه لصدقه وأمانته ومحبته الخير لهم بنصحهم وإرشادهم ودعوتهم إلى مافيه خير دينهم ودنياهم.

ودليل ذلك مانصت عليه الآية الكريمة من قولِ الفتيين اللذَين دخلا معه السّجن فقد أخبر الله عنهما أنهما قالا له: في طلب تأويل رؤياهما: ﴿ نبّئنَا بتأويلِهِ إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسنين ﴾.

ولهذا قال المفسرون: ولما دخل هذان الفتيان إلى السّجن، تآلفا به وأحبّاه حبا شديداً وقالا له: والله لقد أحببناك حباً زائداً[1].

وهنا بدأ يبين لهما نعم الله عليه وعلى الناس جميعاً، ومما أنعم الله به عليه أن علمه تأويل الأحلام وانه عارف بتفسيرها ويخبرهم بها قبل وقوعها.

ولهذا قال كما أخبر الله عنه ﴿ قَالَ لايَأْتِيكُما طَعَامٌ تُرزَقانه إلاّ نَبأْتُكُما بتأويله قَبْلَ أن يأتيكما ذَلِكما مِمَّا عَلّمني رَبّي إنّي تركتُ مِلّةَ قومٍ لاَيُؤمنونَ بالله وهم بالآخرةِ هُمْ كافرونَ* واتّبعْتُ مِلّةَ ءَابَائِي إبْراهيمَ واسْحَاقَ ويَعْقُوبَ مَاكَانَ لَنا أن نُشرِكَ

(١) ابن كثير ٤/ ٣١٤.

بالله مِنْ شيء ذَلِكَ من فَضَلِ الله علينَا وعَلَى النَّاسِ وَلكنَّ أكثَرَ النّاسِ لاَيَشكُرُونَ ﴾ ٣٧ـ٣٨ .

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في نومهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه . قال مجاهد والسدي : قال «لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما» إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .

ثم بين سبب ذلك العلم الذي أوتيه ـ وهو ماستتحدث عنه في الوصية التالية ان شاء الله .



١٧١ ـ الإحسان إلى الناس من أسباب قبول الدعوة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

أما بعد..

فلا زال حديثنا عن قصة يوسف عليه السلام، وذلك لأخذ العبر والأحكام والتوجيهات من أحداثها.

وقد سبق في الوصية الماضية الاشارة إلى ما تحدث به يوسف عليه السلام من ذكر نعم الله عليه وعلى الناس جميعا، عند مخاطبته لِلْفَتَيَنِ اللذين دخلا معه السجن حينما عرضا عليه رؤياهما المنامية، وطلبا منه تعبيرها، وقد وصفاه بقولهما: ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسِنِينَ** ﴾ فالإحسان إلى الناس من أسباب قبول دعوة الداعي إلى الله عز وجل وقد وُصِفَ يوسفُ بذلك قولا وعملا ـ فقد وُصف بالجود، والأمانة، وصدق الحديث، وكثرة العبادة، مع حسن السمت، والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم.

وهذا ما شهد به الفتيان حين قالا له: ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ فلك أيها الداعي إلى الله المتصدي للقيام بمهمة الرسل في يوسف عليه السلام وفي سيد المرسلين محمد ﷺ القدوة الحسنة في معاملة الناس ودعوتهم وتوجيههم إلى الخير، سواء بالقول أو الكتابة أو الفعل، حتى يقبل الناس الخير الذي تدعوهم إليه.

وقد قال القائل الحكيم في هذا:

أحسن إلى الناس تستعبد قُلوبهمو

فَطَالَم استعبد الإنسانَ احسانُ

ان يوسف عليه السلام وهو النبي الكريم . قد أخذ من ذلك المنهج مدخلا لقبول دعوته، ثم أخبر أن ما آتاه الله من علم وفهم في تعبير الرؤيا وتفسيرها هو من فضل الله عليه وعلى الناس جميعا، وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له .

فقال كما أخبر الله عنه : ﴿ **قَالَ لَا يأتيكُما طَعَامٌ تُرزَقَانِه إلَّا نبأتُكما بتأويْلِه قَبلَ أن يأتِيَكمَا ذلِكُما ممّا عَلّمني ربي** ﴾ ثم عدد الأسباب لذلك فقال : ﴿ **إنّي تَركْتُ ملّة قومٍ لَايُؤمِنُونَ بالله وَهُم بالآخِرَةِ هم كافرون* واتّبعْتُ مِلّة ءَابَائي إبْرَاهِيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ مَاكَانَ لَنَا أنْ نُشْرِك بالله من شيء ذلِكَ من فضلِ الله عَلَيْنَا وعلى الناسِ ولَكِنّ أكثَرَ النّاسِ لايَشكُرون** ﴾ /٣٧-٣٨ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات : يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في نومهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه .

ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إيّاي ، لأني اجتنبت ملّة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ، ولا يخافون عقاباً في المعاد، ﴿ **واتّبعتَ ملّةَ آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ .

يقول : هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، واعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه ، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد ﴿ **مَاكَانَ لَنَا أن نُشْرِكَ بِالله مِنْ شَيء* ذلِكَ من فَضْلِ الله عَلَيْنَا وعَلَى النّاسِ** ﴾ .

أي ـ هذا التوحيد ـ وهو الاقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، ﴿ مِنْ

فَضْلِ الله عَلَيْنا ﴾ أي : أوحاه إلينا ، وأمرنَا به . «وعلى الناس» إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك .

﴿ **ولكن أكثـر الناس لا يشكرونَ** ﴾ ـ أي ـ لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم ، بل ﴿ **بدلوا نعمة الله كُفْراً وأحَلُوا قومهم دار البوار** ﴾ .

أيها القاريء الكريم : ان يوسف عليه السلام قبل أن يعبر لصاحبي السجن رؤياهما ـ استغل الموقف وهو ثقتهما فيه واطمأنانهما لصدقه وأمانته وانه يحبُّ لهما الخير والهداية فبدأ بما هو أولى من تعبير رأيهما ألا وهو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده .

والنهي عن الشرك بالله وعبادة إله غيره أو معه ، فكان خطابه موجها لصاحبي السجن أهل الرؤيا وهو خطاب للجميع ببيان التوحيد والتحذير من الشرك ، مبينا أن فضل الله عليه بالعلم والفهم هو بسبب ما سلكه هو ومن اتَّبعهم من المرسلين ، وهو توحيد الله ، والايمان به ربا خالقاً ، وإلها معبودا وحده لا شريك له .

والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب للمطيعين ، وعقاب للكافرين العاصين .

وبيان أن تلك الآلهة التي يدعونها من دون الله أو مع الله لا قيمة لها فهي لا تنفع أحداً ولا تضره ، بل هي أسماء سموها بها هم وجعلوها آلهة ، ولم ينزل بها من الله حجة ولا برهان على كونها تنفع أو تضر .

وأن المستحق للعبادة وحده هو الله الواحد القهار .

ولنقرأ الآيات الكريمة الدالة على ذلك ، قال تعالى مخبرا عن يوسف حينما اتجه إلى الفتيين بالمخاطبة .

﴿ **يَاصَاحِبَيْ السِّجن ءَأرْبابٌ متفرِّقُون خيرٌ أم الله الواحدُ القهار* مَاتَعبُدون مِنْ دُونِهِ إلاّ أسماءً سميتموها أنْتُم وَءَبَاؤُكم مَا أنْزَل الله بهَا مِنْ سُلْطانٍ إنِ الحكم إلاّ لله أَمَرَ أنْ لاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكنَّ أكثَرَ النَّاس لا يَعْلمُونَ** ﴾ /٣٩-٤٠ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : ثم ان يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما. فقال: ﴿ **أَأربَابٌ متفرقون خير أمْ الله الوَاحد القّهار** ﴾ الذي ولي كل شيء بعزّ جلاله وعظمة سلطانه ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال: ﴿ **ما أنزلَ الله بها مِنْ سُلطانٍ** ﴾ أي: حجة ولا برها ثم أخبرهم، أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمَرَ عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه. ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾. ثم أخبر بأن الذي يدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدّين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه. ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يَعْلمونَ** ﴾ ولهذا كان أكثرهم مشركين كما قال تعالى: ﴿ **ومَا أكثرُ النّاس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾.

ويستفاد في منهج الدعوة وطرقها الأخذ بما سلكه يوسف عليه السلام - فقد جعل سؤال الفتيين له على وجه التعظيم والاحترام - وهو قولهما له. ﴿ . . **إنا نراك من المحسنين** ﴾ وصلةً وسبَباً إلى دعوتهما إلى التوحيد والإسلام لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والاقبال عليه، فبدأ بالأهم فدعاهما أولاً إلى التوحيد الذي هو الأصل فمن تحقق له اصلاح عقيدته تيسر له كل عسير بإذن الله تعالى. وهكذا ينبغي للداعية، ثم يعود للأمور الأخرى التي تهم المسلم في حياته.

وهو ما فعله يوسف عليه السلام فبعد أن دعاهما إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده؛ عَادَ إلى اجابتهما عما سألاه عنه وهو تعبير رؤياهما، قال تعالى مخبرا عن ذلك ﴿ **يَاصَاحِبَيْ السِّجْنِ أمَّا أحَدُكُما فَيْسقي رَبَّهُ خَمْراً وَأمَّا الآخِرَ فيُصْلَبُ فتأكلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأسِهِ قُضِيَ الأمْرُ الَّذِي فيه تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ /٤١ .

يقول لهما: ﴿ **ياصاحبي السّجن، أما أحدكما فيسقى ربّهُ خمراً** ﴾.

والرّب معناه السيّد فالساقي هو الذي رأى أنه يعصر خمراً، قال ابن كثير- ولم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله ﴿ **وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه** ﴾. وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً.

ثم أعلمهما أن هذا أمر قد فرغ منه وهو واقع لا محالة. لما رواه ابن جرير عن عبدالله قال: لما قالا ما قالا، وأخبرهما- بتأويل ذلك- قالا: مارأينا شيئاً. فقال: ﴿ **قضي الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾؛ لأن الرؤيا على رجل طائر مالم تعبّر فإذا عبرت وقعت.

فقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ: الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر فإذا عُبرَت وقعت.

هذا وسوف نواصل الحديث لإكمال هذه القصة التي هي من أحسن القصص لأخذ العبر والتوجيهات منها ان شاء الله.

١٧٢ ـ البدء في الدعوة بالعقيدة وهو منهج الأنبياء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعـــد . .

فلا زال الحديث موصولاً عن قصة يوسف عليه السلام ، لما فيها من التوجيهات والأحكام التي يستفيد منها المسلم في عقيدته وسلوكه ومنهجه .

وقد سبق الحديث عن تعبيره الرؤيا لصاحبي السجن بعد دعوتهما إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له لأنه هو المستحق للعبادة وحده فهو الواحد القهار.

كما بين لهما أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ماهي إلا أسماء سموها هم من عند أنفسهم ، كما سماها قبلهم ءاباءُهم ، لم يُنزل الله بها من سلطان ، فلا دليل لهم على عبادتها ـ فلا حجة ولا برهان وهكذا فإن الداعية إلى الله يبدأ بما بدء به الأنبياء في دعوتهم وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له ـ لأن القلوب إذا صلحت صلحت الجوارح كلها . لقوله ﷺ : ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب .

ثم بعد ذلك بين لهما مَا سَألاه عنه ، من تعبير رؤياهما ـ وأن أحدهما سيصلب وتأكل الطّير من رأسه تعبيراً لرؤياه ـ وهو قوله : ﴿ **إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه** ﴾ .

ثم تعبيره لرؤيا الآخر وهو قوله ﴿ **إني أراني أعصر خمراً** ﴾ بنجاته ثم عودته إلى سيده وهو الملك الذي أمر بسجنه ـ ليسقيه خمراً ، كما كانت وظيفته السابقة ،

قبل اتّهامه بأنه سيسم سيده. وأن تعبير هذه الرؤيا ـ دليل على براءته وعودته إلى خدمة الملك مرة أخرى.

وقد أسَرّ يوسف عليه السلام، إلى هذا الساقي الذي ظنّ أنه ناج من القتل بوصية إلى الملك، ليخبره بحاله وبما حدث له من ظلم، فقد سجن بعد ما ظهرت الأدلة على براءته مما اتهمته به امرأة العزيز يقول الله تعالى مخبرا عن ذلك ﴿ **وَقَالَ لِلّذي ظَنَّ أنّـه نَاجٍ منهما اذكُرني عِندَ رَبّكَ فأنساه الشَّيْطَانُ ذِكرَ رَبّهِ فَلَبِثَ في السّجنِ بِضْعَ سنِينَ** ﴾ / ٤٢.

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام لما ظنّ أن الساقي ناجٍ، من القتل، والمراد بالظّن هنا العلم، لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الساقي وهلاك الخبّاز.

وهـذا قول جمهور المفسرين، وهو الأنسب بحال الأنبياء، وقد أخبر عليه السلام عن نفسه بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما في قوله تعالى: ﴿ **لاَ يَأتيكُما طَعَامٌ تُرْزَقَانِه إلاّ نبأتُكُما بتأويلِهِ قبْلَ أنْ يأتِيكُمَا ذَلِكُما مِمَّا عَلّمني رَبّي** ﴾ وكما قال تعالى ﴿ . . **وكذلك مَكنَّا ليُوسُفَ في الأرضِ ولِنُعَلّمَهُ مِنْ تأويل الأحاديث** . . ﴾.

فقال يوسف عليه السلام للساقي: «اذكرني عند ربك» يقول: اذكر قصتي عنـد ربك ـ وهو الملك ـ أي أمره بأن يذكره عند سيده ويصفه بما شاهده منه ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما وقع على يوسف من الظّلم البين، حيث أمر بسجنه بعد أن رأى من الآيات وهي العلامات الدالة على براءته.

فنسي ذلك المُوصَى أن يُذِكّر مولاه الملك بذلك.

قال ابن كثير: وكان ذلك من جملة مكائد الشيطان لئلا يَطْلَعَ نبيّ الله من السّجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله ﴿ **فأنساه الشيطانُ ذكْرَ ربّه** ﴾

عائد على الناجي ـ منهما وهو الساقي ـ كما قاله مجاهد ومحمد بن اسحاق وغير واحد[1].

ويؤيد هذا مابعده من قوله ﴿ **وَقَالَ الّذِي نَجَا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعدَ أمّةٍ أنا أُنَبِئُكُم بِتأويلِهِ فَأرسِلُونِ** ﴾ / ٤٥. أيْ **بعد** مدة من الزّمن.

وقد جعل الله لكل شيء سببا ـ وهو القادر على كل شيء بسبب وبغير سبب ﴿ **إنما أمره إذا أرادَ شَيئاً أنْ يَقُولَ له كن فيكون** ﴾ إلا أن سنة الله جرت في ربط الأشياء بأسبابها وهي من قدر الله عز وجل وقضائه.

ولما حان وقت الفرج الذي قدره الله لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً والذي سيكون بسببٍ يكون فيه ليوسف عليه السلام مكانَةً يستطيع من خلالها أن يبلغ ما أمره الله به من دعوة الناس إلى الخير وتوجيههم إليه.

كما قال تعالى بعد ذلك ﴿ **وَكَذَلِك مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأرضِ يتبوأُ مِنهَا حَيثُ يشاءُ نُصيبُ برحمتنَا منْ نَّشاءُ ولا نضيعُ أجر المحسنين** ﴾ /٥٦.

رأى الملك الرؤيا العجيبة التي عجز عن تأويلها وتفسيرها جميع الكهنة وكبراء دولته.

ولما عجز هؤلاء عن تأويل تلك الرؤيا وادعو أنها أضغاث أحلام.

تذكّر الساقي الذي نجا من القتل ـ يوسفَ عليه السلام. وأنه أهل لتعبير هذه الرؤيا التي رآها الملك.

يقول الله تعالى مخبرا عن ذلك: ﴿ **وقَالَ المَلِكُ إنِّي أرَى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يأكُلُهُنّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأيّها المَلأُ أفْتُونِي فِي رُؤيَايَ إنْ كُنْتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُون. قَالُوا أضْغَاثُ أحْلامٍ ومَا نَحْنُ بتأْوِيلِ الأحْلامِ**

(١) ابن كثير ٢ / ٧٧٦ طبعة دار احياء التراث العربي.

بعَالِمِين. وقَالَ الّذِي نَجا مِنْهُما وادَّكَرَ بَعْدَ أمّةٍ أنَا أُنَبّئكُمْ بتَأوِيلِهِ فأرسِلُون. يُوسُفُ أيّها الصديقُ أفْتِنَا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمَانٍ يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عجافٌ وسَبْعِ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابسَاتٍ لعَلّي أرْجِعُ إلَى النّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوْهُ في سُنْبلِهِ إلاَّ قَلِيلاً مِمّا تَأكُلُونَ. ثُمَّ يَأتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأكُلْنَ مَاقَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلاَّ قَلِيلاً مِمّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ٤٣-٤٩.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدّر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحُزاة ـ والحزاة جمع حاز، وهو المتكهن، يحزر الأشياء ويقدرها بظنه ـ وكبراء دولته وأمراءه وقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿ **أضغاث أحلام** ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه، ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾. أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، أي: تفسيرها وما تؤول إليه.

فعند ذلك تذكّر ذلك الذي نجا من ذيْنك الفتيين، اللذين كانا في السّجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكّر ﴿**بعد أمّة**﴾ أي: مدّة. فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿ **أنـا أنبئكم بتـأويله**﴾، أي بتأويل هذا المنام «فأرسلون» أيْ: فابعثوني إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام ـ فبعثوه؛ فجاءه فقال: «يوسف أيها الصّديق أفتنا» وذكر المنام الذي رآه الملك.

فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ماوصاه به، ومن غير اشتراط للخروج من السجن قبل ذلك. وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله.

١٧٣ ـ بيـــان أن مع العسر يسراً

إن الحمـد لله نحمـده ونستعينـه ونستغفـره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

أمـا بعـــد . .

فلا زال حديثنا موصولاً عن العبر والفوائد التي يستفيدها المسلم في حياته العملية. مما قصه الله عز وجل عن يوسف النبي الكريم. وما جرى له في حياته، مما قدره الله وقضاه ابتلاءً لبعض عباده، لاظهار فضلهم وعلو قدرهم، وليأخذ المؤمنون من ذلك العبرة والقدوة. وقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم ان قصة يوسف عليه السلام من أحسن القصص كما قال في أول هذه السورة ـ سورة يوسف ـ مخاطباً نبيه محمدا ﷺ ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾.

وقد سبق في الوصية الماضية الاشارة إلى قرب الفرج عن يوسف عليه السلام من تلك المحن المتوالية، فهو في هذا الدور في ـ السجن مظلومٌ ـ بعدما ظهرت الآيات ببراءته.

وقد جاء في النصوص الشرعية، ان مع العسر يسراً، وان الأمر إذا بلغ منتهاه من الشدة والضيق جاء الفرج.

قال تعالى: ﴿ **حتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرّسُلُ وظَنُّوا أنّهم قد كذِبُوا جاءهم نصرنا** ﴾ /١١٠.

ومما يروى عن الإمام الشافعي رحمه الله في هذا المعنى قوله:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا   من راقب الله في الأمور نجا

وقال آخر:

ولَـرُبَّ نازلـةٍ يضيق بها الـفتـى   ذَرْعـاً وعـنـد الله منهـا المـخـرجُ
كَمُلتْ فلمّا استحكمت حلقـاتُهـا   فُرجـت وكـان يظنهـا لاتفـرج

ان يوسف عليه السلام قد تنقل من ضيق إلى ضيق، وهو في هذا الدور في السجن مظلومٌ، وقد طال سجنه.

ولكن جاء الفرج الذي قدره الله وقضاه، وهو تلك الرؤيا العجيبة التي رآها الملك وعجز عن تأويلها وتفسيرها الكهنة وكبراء رجال دولته وأمراءه كما سبق الحديث عن طرف من ذلك.

ثم ان الساقي الذي نجا، وهو أحد الفتيين اللذين كانا مع يوسف في السجن وعبر لهما رؤياهما.

وقد أوصاه يوسف عليه السلام ـ أن يذكر حاله ووضعه الحقيقي عند سيده ـ وهو الملك المُعبّر عنه ـ بالرب.

كما ذكر الله ذلك عنه ﴿ **وَقَالَ لِلّذِي ظَنَّ أَنّهُ ناجٍ منهما اذكرني عِنْدَ رَبّكَ** ﴾ والمقصود بالرب الملك. ـ وهو المتصرف في أمر الفتى وقد نسي الفتى ما أوصاه به يوسف كما قال تعالى: ﴿ **فَأَنْسَاهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبّه** ﴾.

ولما عجز من طَلبَ منهم الملك تعبير رؤياه، وقالوا للملك إنها ﴿ **أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾.

عند ذلك تذكر الفتى الذي نجا ـ ما أوصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ـ ﴿ **بعد أمة** ﴾ أي بعد مدة طويلة من الزمن. وهو مادل عليه قوله تعالى: ﴿ **فَلَبثَ في السّجْنِ بِضْعَ سنينَ** ﴾ والبضع ما بين الثلاث السنين إلى التسع.

فقال: ذلك الفتى للملك والذين جمعهم لذلك الأمر الذي أزعجه في رؤياه وعجزوا عن تفسيره. ﴿ **أَنَا أُنبِّئُكُمْ بِتأويلِه** ﴾ أي: بتأويل هذا المنام. ﴿ **فَأرسِلُون** ﴾.

ومعنى الكلام: فبعثوه فجاءه فقال: ﴿ **يُوسُفُ أيُّها الصّديق أفتنا** ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك.

وهنا ننظر ماذا صنع يوسف عليه السلام مع الفتى الذي أوصاه عند ما عبر له رؤياه ـ بأن يذكر للملك حاله وقصة سجنه، ولم يبلغ الفتى تلك الرسالة.

وقد مكث بعدها في السجن بضع سنين. إن يوسف عليه السلام وهو الكريم ابن الكريم.

كما قال رسول الله ﷺ في وصفه ـ لم يسأل الفتى عن الرسالة لماذا لم يبلغها للملك ولم يُعَنّفْهُ على ذلك، بل لم يعاتبه على عدم ايصالها.

ثم هو كذلك لم يشترط الخروج من السجن قبل تعبير الرؤيا، والملك في حاجة ملّحةٍ إلى تعبيرها وتفسيرها؛ ولكنه عليه السلام عبّرها له مباشرة مع بذل النصيحة للملك فيما ينبغي أن يعمله لمواجهة تلك السنين المجدبة.

وهذه أخلاق سامية، ينبغي للمسلم ولاسيما الداعية إلى الله أن يتخلق بها.

فقال له في تفسيرها ﴿ **تزرعونَ سبع سنين دأباً** ﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متوالياتٍ، ففسر البقر، بالسنين، لأنها تثير الأرض التي تُستغل منها الثمرات والزروع، وهنّ السنبلات الخضر.

ثم أرشدهم إلى مايعتمدونه في تلك السنين فقال ﴿ **فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً ممّا تأكلون** ﴾.

يقول: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فاخزنوه في سنبله

ليكون أبقى له وأبعد عن اسراع الفساد إليه. ولا تفصلوه عن سنبله، لئلا يأكله السوس. إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه. لتنتفعوا بذلك في السَّبع الشداد. وهنّ السبع السنين المُحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهنّ البقرات العجاف اللّاتي تأكل السبع البقرات السّمان؛ لأن سنين الجدب والقحط التي يصعب أمرها على الناس؛ يُؤكل فيها ما جمعوه في سنين الخصب، وهن السنبلات اليابسات ثم أخبرهم عن حال هذه السبع الشداد ـ وأنّهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿ **يأكلن ما قَدّمْتُمْ لهنَّ إلاّ قليلاً مِمّا تُحصِنونَ** ﴾.

من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها. والمعنى يأكل الناس فيهنّ ما ادّخرتم لأجلهن. ﴿ **إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ أي: تحبسونه من الحب لتزرعوا به، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات.

ثم بشرهم بعد الجدب والقحط العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿ **عام فيه يغاث الناس** ﴾ أي: يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ماكانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه حتى قال بعضهم يدخل فيه حلب اللبن كما روى عن ابن عباس.

أيها القارىء الكريم: إن الصدق في النصيحة، والإخلاص في العمل، والإحسان إلى الناس من الصفات الحميدة التي يحبها الله عز وجل ويثيب عليها. فالله يحب المحسنين، ويحب الصادقين، ويحب المتقين، وهذه صفات امتاز بها يوسف الصديق عليه السلام.

فقد أحسن إلى مولاه العزيز، فحفظ الأمانة معه ولم يخنه بالغيب في أهله كما أحسن إلى أهل السجن الذين عاش معهم تلك المدة الطويلة سجيناً، وقد قدم

لهم كل احسان فقام بشؤنهم وارشادهم وتوجيههم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدارين ألا وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له.

وها هو يقدم النصح والإرشاد إلى الملك ورعيته ويدلهم على ما ينبغي عمله لمواجهة تلك السنين المجدبة، إضافة إلى تعبيره للملك رؤياه التي عجز عنها الملأ حوله، ثم انه لم يُعَنّف الفتى الذي لم يبلغ رسالته إلى الملك التي أوصاه فيها بأن يذكر للملك حاله وسجنه ظلما بعد ظهور براءته.

ولعل الحكمة : في تقدير ذلك النسيان على الفتى - ان يوسف عليه السلام لو خرج من السجن بغير هذه الصورة، لم تكن له هذه المكانة عند الملك ولم يكن له التمكين في الأرض ليقوم من خلال ذلك بإبلاغ رسالة الله ودعوة الناس إلى الدّين الحق في أرض مصر وعلى رأس المدعوين الملك للدخول في دين الله، وترك عبادة تلك الآلهة التي سموها من عند أنفسهم لم ينزل الله بها من سلطان وإن من وسائل قبول الدعوة الإحسان إلى الناس.

وقد قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمو

فطالما استعبد الإنسانَ احسانُ

إن ذلك الإحسان قد دعا الملك إلى دعوة يوسف عليه السلام، لا لإخراجه من السجن فحسب، بل ليجعله من خواصه ومستشاريه وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله.

١٧٤ ـ آثـار الاحسـان في قبول الدعـوة

إن الحمـد لله نحمـده ونستعينـه ونستهـديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أمـا بعـــد . .

فقد عرفنا في الوصية الماضية من قصة يوسف عليه السلام ـ في تعبيره لرؤيا الملك واسداء النصيحة له ولرعاياه فيما ينبغي عمله لمواجهة تلك السبع الشداد من سنيّ القحط .

ان من وصـايا الكتاب والسنة بذل المعروف وتقديم الإحسان إلى الناس جميعاً ، وتلك مهمة الرسل ، فقد بعثهم الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

وذلك المنهج السليم هو الذي ينبغي أن يسلكه المسلم في جميع معاملاته مع الناس على اختلاف مشاربهم . لأن كل فرد من هذه الأمة مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا فرق في ذلك ـ بين الموظف في الحسبة ـ أي ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ أو في التعليم ، أو في الادارة ، أو في التجارة أو غيرها . لقوله تعالى ﴿ **كنتم خَيْرَ أمّةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . . .** ﴾ .

فكل من ترسم في أداء عمله توصيةَ الكتاب والسنة وعملَ السلف الصالح من هذه الأمة ـ فهو داعية إلى الله في حقله الذي يعمل فيه .

ان عمل الخير والإحسان ، بالأسلوب الحسن يقود الناس إلى الخير ويرغبهم

فيه ويدعوهم إلى اعتناقه والدعوة إليه، ولو كانوا في أبهة من الجاه والسلطان.

كما أن من يدعو الناس إلى الخير يجب عليه أن يكون من أول المبادرين إليه. وأن يبعد نفسه عن مواطن الشبه، وإذا امتحن بشيء من ذلك ظلما وزورا فله أن يبرأ نفسه وينقي عرضه حتى تقبل دعوته.

وان يوسف عليه السلام الذي قدم ذلك الاحسان إلى الملك ورعيته وهو في السجن ظلما ـ فإنه لكرمه وحسن معاملته لم يشترط على الملك، وقد احتاج الملك إليه ـ الخروج من السجن قبل تعبيره لرؤياه بل عبرها أيْ ـ فسرها له وبين له ماتدل عليه. وهو في السجن، ثم أضاف إلى تفسير الرؤيا وبيان معناها النصيحة الثمينة للملك وشعبه، التي هم في حاجة ماسة إليها، لإعداد ما ينبغي اعداده لمواجهة تلك السّني المجدبة.

إن ذلك العمل من يوسف عليه السلام ـ قد جعل الملك يدعو يوسف من السجن لا لإخراجه منه فحسب كما سبقت الإشارة لذلك وإنما لإكرامه وتمكينه وجعله من خواصه ومستشاريه.

ولكن يوسف عليه السلام لم يستعجل الخروج ويبادر إليه وان كان في حال يستدعي ذلك لطول مكثه في السجن.

بل صبر وتأنى حتى يشعر الملك ببراءته مما اتهم به، وأنه سجن ظلما وزورا؛ وان خروجه من السجن بعد اعلان براءته للناس جميعاً سيمكنه من الثقة الكاملة عند الملك ورعيته، مما يسهل قبول دعوته.

ولنسمع لهذه الآيات المعبرة عن ذلك، ثم نتبعها بالأحاديث التي ذكرها رسول الله ﷺ في مدح يوسف والثناء عليه يقول الله تعالى مخبرا عن ذلك:

﴿ وَقَالَ المِلكُ ائتُوني بِهِ فَلَمّا جَاءهُ الرّسولُ قَالَ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَسْئلْهُ مَا بَالُ النّسْوةِ اللاّتي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ إنَّ رَبّي بِكَيْدِهِنَّ عَليمٌ۞ قالَ مَا خَطْبُكُنّ إذْ رَاوَدْتُنَّ

يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لله مَا عَلِمْنا عَلَيهِ مِنْ سُوءٍ، قَالتِ امْرأتُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذلِكَ لِيعْلَمَ أنّي لم أخُنْهُ بالغَيْبِ وأنَّ الله لايَهْدِي كيْدَ الخَائِنِينَ، وَمَا أبَرىءُ نَفْسِي إنّ النّفْسَ لأمَّارَة بالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحَمَ رَبِّي إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رحيم ﴾ / ٥٠-٥٣.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره: يقول تعالى إخبارا عن الملك لمّا رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على مَنْ ببلده من رعاياه. فقال ﴿ **ائتوني به** ﴾ أي: أخرجوه من السّجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك، امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً. فقال ﴿ **ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتي قَطّعْن أيْدِيَهُنّ** ﴾ الآية.

فلم يستعجل للخروج من السجن مع مكثه الطويل فيه فقد كان سجنه عليه السلام خلوة ودعوة.

قال ابن كثير: وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه. ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: نحن أحق بالشّكِ من إبراهيم إذ قال ﴿ **ربّ أرني كيف تحي الموتى** ﴾ الآية. ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[1].

وفي لفظ لأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ **فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديَهُنَّ إنّ ربي بكيدهنّ عليم** ﴾ فقال رسول الله ﷺ «لو كنت أنا

(١) البخاري، التفسيرح٤٦٩٤ .

لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر».

وفي حديث مرسل أخرجه عبدالرزاق عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتُهم حتى اشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر».

هكذا كان حال يوسف عليه السلام ومن أجل ذلك أثنى عليه المصطفى ﷺ بهذا الثناء الجميل وهو أهل له.

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيَّ الناس أكرم قال: أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبيّ الله. ابنِ نبيّ الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله...» الحديث.

ثم ان الآيات الكريمة تدل أن الملك استجاب لطلب يوسف عليه السلام في جمع النسوة اللاتي قطعن أيديَهُنَّ - لتظهر براءة يوسف عليه السلام مما اتهمته به امرأة العزيز فقد جاء الاعتراف الصّريح من امرأة العزيز ببراءته أمام أولئك النسوة كما في قوله تعالى: ﴿ **وقَالَ نِسْوةٌ في المدينةِ امرأتُ العَزيز تُراودُ فتَاهَا عنْ نَفْسهِ قدْ شَغَفَها حُبًّا إنَّا لَنراهَا في ضَلالٍ مُبين. فلَمّا سَمعتْ بِمكْرهنَّ أرسَلتْ إليْهنَّ وأعْتَدتْ لَهُنَّ مُتَّكئاً وءاتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهنّ سِكّيناً وَقَالتِ أخْرُجْ عَليهنَّ فلمَّا رَأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ وقطّعْنَ أيْدِيهُنَّ وقُلْنَ حاشَ لله مَا هَذَا بشراً إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَريمٌ. قَالَتْ فَذَلكُنَّ الّذي لُمْتُنَّني فِيه ولَقَدْ رَاودْتُهُ عنْ نَفْسه فَاسْتَعْصَمَ ولَئنْ لَمْ يَفْعلْ مَا ءامُرُهُ بِهِ لَيُسْجَنَنَّ وليكونَا مِنَ الصَّاغِرينَ. قَالَ ربِّ السّجن أحَبُّ إلَيّ ممَّا يَدْعُونَني إلَيه...** ﴾ الآية.

أي ـ أعدت لهنّ ضيافة وسلمت كل واحدةٍ سكيناً ـ لتظهر لهن حالهنّ حين يخرج عليهن يوسف وقد عملت ذلك، فذهلت كل واحدة منهن حين رأينه وبدل تقطيع الفاكهة قطّعن أيديَهن. ثم إنها اعترفت أمام النسوة بأنها هي المراودة له عن نفسه، وانه امتنع مما دَعتْه إليه، وقد هدّدَته بالسجن إن لم يفعل ما طلبته منه. فامتنـع ـ فنفذت تهديدها فسُجن عليه السلام ـ وهو الآن يُدعى للخروج من السجن فيمتنـع حتى تظهـر براءته للملك ولرعيته، مما رمي به ظلماً وعدواناً. ويريد أن يسمع الملك تلك البراءة بنفسه، وممن اتهمه ظلما وهي امرأة العزيز.

يقول ابن كثير وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ ماخَطْبكُنّ إذْ رَاودْتُنَّ يوسفَ عنْ نَفسِهِ** ﴾ اخبـار عن الملك حين جمع النسوة الّلاتي قَطّعن أيديَهُنّ عند امرأة العزيز فقال مخاطباً لهنّ كلهنّ. وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز. قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿**مـاخَـطْبكُنَّ**﴾ أيْ شأنكن وخـبركن ﴿ **إذْ رَاوَدْتُنّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ** ﴾ يعني يوم الضيافة. ﴿ **قُلْن حاشَ لله مَاعَلْمنَا عَليهِ مِنْ سوء** ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسفُ متهماً، والله ماعلمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿ **قالت امرأة العزيز الآن حصص الحق** ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحقّ وظهر وبرز ﴿ **أنَا رَاودْتُه عن نفسِهِ وإنه لمن الصادقين** ﴾ أي: في قوله: ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب** ﴾.

تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولاوقع المحذور الأكبر، وإنما راودْتُ هذا الشاب مراودة، فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ **وأن الله لايهدي كيد الخائنين ومَا أُبرّيءُ نَفسي** ﴾، تقول المرأة: ولست أبرىء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأن ﴿ **النفسَ أمّارَة بالسوء إلاّ مارحم ربّي** ﴾ أيْ: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿ **إن ربي غفور رحيم** ﴾.

قال ابن كثير: وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة.

قال: وقد قيل: ان ذلك من كلام يوسف عليه السلام، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

قال: والقول الأول أقوى وأظهر. لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك، حيث قال تعالى بعد ذلك ﴿ **وقالَ الملك ائتوني به أسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسي فَلَمَّا كَلّمهُ قال إنَّك الْيومَ لدينا مَكِينٌ أمينٌ۝ قَالَ اجعلني عَلَى خزائن الأرْضِ إنّي حَفيظ عَليم** ﴾ وهذا ما سنواصل الحديث عنه في وصية قادمة ان شاء الله.

١٧٥ ـ بيان أن الأناة في الأمور من الخصال الحميدة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

أما بعـــد . .

فلا زال الحديث موصولا عن قصة يوسف عليه السلام لبيان ما تضمنته هذه السورة العظيمة من وصايا وعبر وأحكام.

وحديثنا في هذه الوصية سيتناول موضوعات أهمها بيان جزاء الصابرين المحسنين في الدنيا، وجزيل ثوابهم في الآخرة.

وأن الأناة في الأمور، وعدم الاستعجال فيها، من الخصال الحميدة، والأخلاق الرشيدة.

وأنْ للرجل ذُو العلم والفضل والخبرة، إذا كان يُجهلُ حاله فإنه يجوز له، أن يذكر عن نفسه ما يجيده ويحسنه في حال الضرورة. كما أنه ينبغي لمن ولي ولاية صغيرة كانت أو كبيرة أن يختار أهل العلم والفضل والخبرة، فبالعلم والفضل يحصل العدل، وبالخبرة يكون الإتقان.

وان لمن ظلم في عرضه بما يسيء سمعته أن يتحلى بالصبر، وأن يسلك الطريق المناسب الذي يتوصل به إلى رفع الظلم عنه وبيان براءته ان هذه المعاني وغيرها قد تضمنتها قصة يوسف عليه السلام.

وقد سبقت الاشارة إلى بيان صبر يوسف عليه السلام وما أثنى به عليه رسول الله ﷺ في ذلك، فإنه لمّا عبّر رؤيا الملك تلك الرؤيا الغريبة العجيبة، وأعجب

الملك ذلك التعبير المقرون بالنصح والمشورة، أدرك أن يوسف رجل ناصح أمين، ذو علم وخبرة، وانه ممن يعتمد عليه في مهمات الأمور وعظائمها.

عند ذلك أرسل إليه الملك لإخراجه من السجن وإكرامه. ولكن يوسف عليه السلام لم يتعجل الخروج مع طول مكثه في السجن، بل صبر حتى يعلمَ الملك بنفسه براءة يوسف مما اتهمته به امرأة العزيز، وبعد أن سمع الملك بنفسه اعتراف امرأة العزيز وأنها هي التي راودته عن نفسه وأنه الصادق الأمين، استجاب لدعوة الملك، كما بين ذلك في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَاخَطْبُكنّ إذْ رَاوَدْتُنَّ يوسفَ عَنْ نَفْسهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَت امرأتُ العَزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ /٥١.

عند ذلك استجاب لدعوة الملك والحضور إلى مجلسه ثم العمل معه يقول تعالى مخبراً عن ذلك ﴿ **وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بهِ أستخلصه لنفسي فَلَمَّا كَلّمَهُ قَالَ إنّكَ اليومَ لَديْنَا مَكِينٌ أمين** ﴾.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «هذا اخبار من الله تعالى عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نُسب إليه، قال: ﴿ **ائتُوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي «فَلَما كلّمه» أي: خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلق وخُلق وكمال، قال له الملك: ﴿ **إنَّكَ اليومَ لَدَيْنا مَكينٌ أمين** ﴾ أي: إنك عندنا بقيت ذا مكانة وأمانة.

فيوسف عليه السلام صبر وتأنى في الأمر، ولم يتعجل الخروج من السجن - بل قال لرسول الملك: ارجع إليه حتى يسأل هو بنفسه النّسوة اللاتي قطّعن أيديهن ماسبب ذلك، فرجع رسول الملك حاملا لتلك الوصية.

كما قال تعالى مخبرا عن ذلك ﴿ **وقَالَ الملك ائتوني به فلما جاءه الرسولُ قال**

ارجع إلى ربّك فسْئَلْهُ مَابَالُ النسوة الّلاتي قطّعنَ أيديَهُنَّ إنَّ رَبّي بَكَيْدِهِنَّ عليم ﴾ /٥٠.

فاستجاب الملك لذلك الطلب واحضر النّسوة الَّلاتي أحضَرتهُنّ امرأة العزيز حين سمعت بمكرهنّ كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ في المَدِينَةِ امرأةُ العَزِيز تُراودُ فتاها عَنْ نَفْسِهِ قد شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لَنراهَا في ضَلَالٍ مبين ﴾ الآية.

إن الحلم والأناة، من الخصال الحميدة، وهي من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد مدح الرسول ﷺ يوسف على ذلك الصبر والتأني وعدم الاستعجال للخروج من السجن حتى ظهرت براءتُه ونزاهة عرضه للملك وشعبه ولهذا كانت النتيجة الحميدة ألا وهي ثقة الملك به وتمكينه من الأمور المهمة وجعله من خواصه، ومستشاريه. حيث قال له: ﴿ إنَّكَ اليومَ لَدَيْنَا مكينٌ أمينٌ ﴾.

وهذا يشعر برغبة الملك في أن يسند إليه بعض أمور دولته وتصريف شؤونها، بل السياق يدل على ذلك.

فقال يوسف عليه السلام عند ذلك: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنَ الأرْضِ إنّي حَفِيظٌ عَلِيم ﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ للرجل صاحب العلم والفضل والخبرة، إذا جُهل حاله ـ وكانت هناك مصلحة راجحة أنْ يذكر حاله ويعرّف بنفسه لذلك الغرض. لا لأمرٍ آخر.

ويوسف عليه السلام من أهل العلم والفضل بل إنه نبيّ يُقتدى به. وكان الملك يجهل حاله ولذلك فقد مكث تلك الفترة الطويلة في السجن.

وحين دعاه الملك وقال له ﴿ إنّكَ اليَوْمَ لدينا مكين أمين ﴾ عرفه بنفسه وأنه ذو خبرة وأمانة، وعَيّنَ له نوع العمل الذي يحسنه. فقال: ﴿ اجعلْني على خَزَائِنَ الأرضِ إنّي حَفِيظٌ عليمٌ ﴾.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: إن يوسف عليه السلام مدح نفسه، ثم قال: وإنه يجوز للرجل ذلك، إذا جُهل أمره للحاجة، وذكر عن نفسه أنه «حفيظ» أي: خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما يتولاه، حفيظ لما استودعتني عليم بسني الجدب، فالأمر هنا ليس بتزكية للنفس لغرض شخصي، وإنما هو لمصلحة عامة ومهمة شاقة لا يقوم بها على الوجه المطلوب غيره.

ثم هو يطلب العمل ويعين ذلك العمل، وهو أن يجعله على خزائن الأرض. وهو ما يعبر عنه في الاصطلاح المعاصر، بوزير المالية، ووزير الخزانة. وهو كذلك لا يطلب العمل لغرض دنيوي. ولا يطلب أمرا من الملك لشخصه حين رأى اقبال الملك عليه، وإنما طلب ذلك العمل الخاص ليواجه بعلمه وبصيرته وخبرته تلك السنين الشداد التي لا زرع فيها ولا ضرع وفي ذلك إحسان إلى الناس جميعاً، وسيأتي قول بعض العلماء أن الملك أسلم على يدي يوسف.

يقول ابن كثير: وسأل يوسف العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يتبوأُ منها حيث يشاءُ نُصِيب بِرَحْمَتِنا مَنْ نشاءُ وَلاَ نُضِيعُ أجْرَ المحسنين* ولأجر الآخرة خَيْرٌ لِلّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يتّقُون** ﴾ /٥٧.

وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله وهو بيان جزاء الصابرين في الدنيا، وحسن ثوابهم في الآخرة فإلى ذلك الحديث.

١٧٦ ـ بيـان جزاء الصابرين في الدنيا والآخرة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بعــــد ..

فلا زال الحديث موصولا عَمَّا مَنَّ الله به على يوسف عليه السلام في الدنيا، وما أعده له من الأجر والثواب في الآخرة على صبره، فالله يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب.

وهو عز وجل يبتلي عباده الصالحين، ليزيد في أجورهم، ويرفع درجاتهم، وليقتدي بهم المؤمنون في هذه الحياة الدنيا، فإن أعظم الناس بلاء وشدّة الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

ويوسف عليه السـلام من هؤلاء الصفوة الذين اختارهم الله لرسالته وقد لاقى من الابتلاء مالاقاه غيره من إخوانه الأنبياء.

وقد مر معنا نماذج مما ابتلي به عليه السلام، من حسد إخوته له ثم إلقائهم إيّاه في غيابة الجب ـ أي ـ البئر. ثم احتقاره واذلاله وبيعه عبداً ـ وهو الكريم ابن الكريم.

ثم ابتلاؤه بامرأة العزيز ذات السلطة التي قالت: ﴿ ... **وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَامُـرُهُ لَيُسجَنَّنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ وقد نَفَّذَتْ ما توعدته به، فسجن تلك الفترة الطويلة مظلوماً.

وهو مع كل ذلك كان قائماً بأمر الله، مبلغاً لما أمره به، صابراً محتسباً داعياً إلى الله موجهاً الناس إلى الخير، ناصحاً أميناً لمن أودعه السجن مظلوماً.

وقـد جاء الفرج، ثم الجزاء ممن لايضيع أجر المحسنين ممن بيده ملكوت

السموات والأرض ـ الجزاء على ذاك الصبر في الدنيا، ولأجر الآخرة خيرٌ وأعظم للمؤمنين المتقين. يقول الله تعالى في ذلك بعد أن قال الملك ليوسف عليه السلام ﴿ . . . قال إنّكَ الْيَوْمَ لَدَينَا مكينٌ أمينٌ ﴾ ﴿ قَالَ اجْعَلْني عَلَى خَزَائِنَ الأرضِ إنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقد استجاب الملك لطلبه قال تعالى: ﴿ وَكَذَلكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ في الأرْضِ يَتَبوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يشَاءُ نُصِيبُ برَحْمتِنَا مَنْ نَشَاءُ ولاَ نُضيعُ أجْرَ الُمحْسِنينَ* ولَأجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلّذِينْ ءَامَنُوا وكَانُوا يَتّقُون ﴾ / ٥٦-٥٧ .

يقول ابن كثير رحمه الله، يقول تعالى: ﴿ وَكَذلِكَ مكنّا ليوسف في الأرض ﴾ أي: أرض مصر، ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾.

قال السّدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار.

﴿ نُصيبُ برَحْمتنا مَنْ نَّشاءُ وَلاَ نُضِيعُ أجْرَ الُمحْسِنسنَ ﴾. أي: وما أضَعْنَا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل، السلام والنّصر والتأييد فأبدله الله من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن الخوف أمنا، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا فالله يقول: ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ ذلك أن للإحسان مقاماً عالياً، ورتبة رفيعة لا يصل إلى تحقيقها إلا الأصفياء.

وقد فسّر رسول الله ﷺ مقام الإحسان حين سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام، والايمان، والإحسان، فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ولاشك أن يوسف عليه السلام ممن حقق هذا المقام، في الإيمان بالله وعبادته، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، فهو ممن أحسن هذا، المقام وأحسن

السلوك والعمل والتصرف مع الناس والاحسان إليهم حتى من أساءوا إليه. ولذلك أعزه الله ورفع مقامه في الدنيا. وما ادّخره الله له في الآخرة أعظم حيث قال: ﴿ **وَلَأَجْرُ الآخِرةِ خَيْرٌ لِلّذينَ ءَامَنوا وَكَانُوا يَتَّقُون** ﴾ ٥٧/.

يخبر تعالى: أن مادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿ **هَذَا عَطَاؤُنا فَامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغير حساب* وإنَّ لهُ عِنْدَنَا لَزُلْفى وحُسْنَ مأب** ﴾.

يقول ابن كثير: والغرض أن يوسف عليه السلام، ولاه ملك مصر الريان بن الوليد، الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر، زوج الذي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام. قاله مجاهد[1].

أيها القارىء الكريم ـ ان هذا جزاء الصابر المحتسب، المحسن في عمله المتقي لربه، في الدنيا، فإذا ابتليت بأي نوع من الابتلاء فاصبر واحتسب ذلك عند الله، والله عز وجل يقول: ﴿ .. **إنّما يُوفّى الصَّابرُون أجْرَهُمْ بِغَيرِ حِسَاب** ﴾.

ان يوسف عليه السلام قد صبر على ما لاقى في هذه الفترة الطويلة من أذى، فصبر واحتسب، صبر على قضاء الله وقدره، وهو يعلم عاقبة الصبر الحميدة، بما علمه ربه فهو نبي يُوحى إليه.

وقد جاءت نتيجة عاقبة الصبر وجزاءه في الدنيا بما مكنه الله في الدنيا حيث أصبح المتصرف في أرض مصر، فبعد الحبس والضيق والشّدة، أصبح يتبوأ في أرض مصر حيث يشاء.

---

(١) ابن كثير ٣٢١/٤. ابن جرير. الأثر ١٩٤٦٢ : ١٥٢/١٦.

وقد قال تعالى في مطلع القصة مُوصياً ليوسف عليه السلام ذاكرا له لطفه به ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر، وذلك حين أجمع أخوته على القائه في الجب حسدا وبغيا لا لذنب ارتكبه في حقهم، وانه سينبئهم بظلمهم هذا له وهم لا يشعرون.

قال تعالى في ذلك ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وأجْمَعُوا أنْ يَجْعَلُوه فِي غَيَابَةِ الجُبّ وأوْحَيْنَا إلَيْهِ لتُنَبئَنَّهم بِأمْرِهِم هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرون** ﴾ ١٥.

فقد أوحى الله إليه بذلك وهو في تلك الحال من الضيق والشدة تطييباً لقلبه وتثبيتاً بقوله: لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا. وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾.

قال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

وقد جاء ذلك الوعد بعد هذه الفترة الطويلة ـ فقد أصبح يوسف وزيرا في مصر، ومضت السنين المخصبه. ثم تلتها السبع السنين المجدبة وعم القحط بلاد مصر بكاملها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده.

يقول ابن كثير: وحِينئذٍ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

ثم رد القصص الاسرائيلية المخالفة لهذا المعنى .

قال : ثم انه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما ، وركبو عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف .

فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم ، وهم له منكرون لا يعرفونه ، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيّارة ولم يدروا أين يذهبون به ولاكانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه .

قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وهم له منكرون** ﴾ . وهو معنى قوله تعالى حين ألقاه إخوته في الجب ـ أي البئر : ﴿ **وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُم بأمْرهمْ هَذَا وهُم لاَيَشْعُرون** ﴾ .

وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله .

١٧٧ ـ العفو عند المقدرة من الخصال الحميدة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد . .

فلا زال الحديث موصولا عن أحداث قصة يوسف عليه السلام مع اخوته لأخذ العبر والتوجيهات منها، لأن كل ماورد في كتاب الله عز وجل تشريع لعباده.

فالله يقول: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّين مَا وَصَّى به نُوحاً والّذي أوْحَينا إلَيْكَ وَمَا وَصَّينَا بِهِ إبْراهِيمَ ومُوسَى وعيسَى أنْ أقِيمُوا الدّينَ ولا تتفرقُوا فيه . .** ﴾.

ومما شرعه الله لأنبيائه وعملوا به وطبقوه في حياتهم العملية الاحسان إلى من ظلمهم واعتدى عليهم، والعفو عنهم عند القدرة عليهم. وهذا في حقهم عليهم السلام ـ أما إذا انتهكت محارم الله فلا.

وسنقـرأ ماقـالـه يوسف عليه السلام في آخر القصة، لاخوته حين عرفوا خطأهم وما ارتكبوه في حقه ظلما وعدوانا.

كما سنعرض حينذاك لما قاله المصطفى ﷺ لقومه وعشيرته الذين أخرجوه من أحبّ البقاع إليه ـ مكة المكرمة ـ حين انتصر عليهم، ودخل مكة فاتحاً.

وذلك ليأخذ المسلم من ذلك القدوة الحسنة في العفو عمن ظلمه، مع بيان درجة من يعمل بهذا الخلق الكريم عند الله عز وجل.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ **وَجاءَ إخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفهم وهُمْ لَهُ مُنْكِرُون* ولَمَّا جهّزَهم بجهَازِهِمْ قَالَ ائْتُوني بَأخٍ لَكُم مِنْ أبيكُمْ ألاَ تَرَوْنَ أنّي أُوفي الكَيْلَ وَأنَا خَيْرُ المُنْزِلينَ* فإنْ لَمْ تَأْتُوني بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُم عِندي ولاتَقْرَبُون***

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وإنّا لَفَاعِلُون. وقَالَ لِفْتيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ ٥٨-٦٢ .

ذكر المفسرون ـ أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سني الجدب، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده.

فكان من جملة الواردين للميرة إلى مصر أخوة يوسف عليه السلام عن أمر أبيهم لهم في ذلك، كما سبقت الإشارة إلى هذا في الوصية الماضية. فلما دخلوا عليه وهو جالس في أبهته ورياسته عرفهم حين نظر إليهم ﴿ **وهم له منكرون** ﴾ أي: لا يعرفونه. لأنهم فارقوه وهو صغير، ولاكانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه. فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

يقول الإمام ابن كثير: فذكر السدى: انه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أيها العزيز: إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فَمِنْ أَيْنَ أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر فذهب أصغرنا، هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه.

فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ **ولما جهزهم بجهازهم** ﴾ أي: وَفّاهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿ **ألا تَرونَ أنّي أوفي الكيلَ وأنَا خير المنزلين** ﴾؟ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهّبهم فقال: ﴿ **فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون** ﴾. أي: ان لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة ولا تقربون.

﴿ **قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون** ﴾ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولانبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وقال لفتيانه - أي: غلمانه ﴿ **اجعلوا بضاعتهم** ﴾ وهي التي قدموا بها ليمتاروا عوضا عنها طعاماً ﴿ **في رحالهم** ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ **لعلّهم يرجعون** ﴾ بها.

وقد ذُكرت تعليلاتٌ لسبب إعادته بضاعتهم إليهم وهم لا يشعرون.
منها - أنه خشي أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها مرة أخرى - وهو حريص على رجوعهم. وقيل تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام الذي يبيعه لهم. فلما رجعوا إلى أبيهم، وقد وعدوا يوسف عليه السلام بإحضار أخيهم بنيامين معهم ليدلّلوا على صدقهم، وأنهم لم يحضروا لمصر إلا من أجل الميرة لأهلهم وليسوا عيونا كما اتهمهم يوسف بذلك. وهم في حاجة إلى الطعام لأهلهم وذويهم، فقد عم القحط البلاد جميعاً، ولا يوجد الطعام إلا عند عزيز مصر.

يقول الله تعالى في ذلك مخبرا عن قولهم لأبيهم ومراودتهم له في السماح لأخيهم بنيامين بالذهاب معهم إلى مصر كما وعدوا يوسف بقولهم سنراود عنه أباه - أيْ - سنحرص على مجيئه واحضاره معنا قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيه إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُم عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ ٦٤.

يقول الحافظ ابن كثير - يقول الله تعالى عنهم: إنَّهم رجَعُوا إلى أبيهم ﴿ **قالوا ياأبانا مُنع منا الكيلُ** ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا «بنيامين» لانكتل، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون. أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك.

وهـذا كما قالـوا له في يوسف ﴿ **أرْسِلْهُ مَعَنَـا غَداً يَرتَـعْ وَيَلْعَبْ وإنّـا له لَحَافـظون** ﴾ ولهـذا قال لهم ﴿ **هَلْ ءَامَنكُمْ عَلَيه إلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي ـ هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل. تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ﴿ **فَالله خيرٌ حَافظاً وهو أرْحَم الرَّاحمين** ﴾ أي ـ هو أرحم الراحمين بي وسيرحم كِبَري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

عبرة وتــوجيــه: وبيان أن الغيب لايعلمـه إلا الله وحـده، وأن الأنبياء لايعلمون إلا ماعلمهم الله فمن باب أولى غيرهم. إن ماحدث لنبي الله يعقوب عليه السلام، من أولاده، وتصرفهم معه في يوسف عليه السلام حسدا له ـ ثم تغييبهم له عن والـده بإلقـائـه في الجب، ثم تنقله في تلك المحن تلك الفترة الطويلة، ثم هو الآن في العزّ والرفعة وعلوّ الشأن، والمتصرف في مصر وشؤونها بعد أن كان مودعا في أحد سجونها.

وهو الآن يرتب الأمور، لإحضار أخيه ـ لأن اخوته الذين تصرفوا معه ذلك التصرف، وأجمعوا على إلقائه في الجب، ثم بيعه للسّيارة دخلوا عليه فلم يعرفوه ـ إذ لم يخطر في خلدهم ان ذلك الولد الصغير الذي بيع للسيارة ولايدرون أين ذهبوا به ـ أن يصبح عزيز مصر والمتصرف في شؤونها.

ولكن يوسف عليه السلام عرفهم، وهم مع حسدهم له وتغييبهم له عن أبيه، بَقَوْا على حالهم التي كانوا عليها، لم يستفيدوا من إبعادهم ليوسف عن أبيه شيئاً كما ظنوا عند تخطيطهم لذلك.

كما حكى الله عنهم قولهم ﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرْضاً يَخلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُم وَتَكُونوا مِن بعدِهِ قوماً صَالحِينَ** ﴾ ٩/.

أما هو فقد عوضه الله في الدنيا هذه المكانة جزاء له على صبره، وما وعده الله به في الآخرة أعظم.

وهو الآن يسعى لاحضار أخيه، وهم لا يشعرون بذلك.

فلما رجعوا لأبيهم وطلبوا منه السماح لأخيهم بنميامين بالسفر معهم إلى مصر، لأن عزيز مصر منعهم من الكيل مستقبلا إن لم يحضروا أخاهم الذي ذكروه له ـ ليعلم العزيز صدقهم في قدومهم لمصر حسب ظنّهم، وإلاّ فيوسف ـ وهو الآن عزيز مصر يعرف سبب قدومهم. فخشي يعقوب عليه السلام، أن يصنعوا بأخيهم بنيامين كما صنعوا بأخيه يوسف من قبل.

كل ذلك ويعقوب عليه السلام نبي ـ ولكنه لا يعلم أن عزيز مصر الذي طلب احضار «بنيامين» هو يوسف عليه السلام.

وهذا يعطيك أيها المسلم الدليل القاطع أن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده ـ ولا يعلم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، إلا ما علمهم ربهم عز وجل كما قال تعالى ﴿ **عالم الغيب فَلَا يُظْهِرُ عَلى غَيبِهِ أحداًإلاّ من ارْتَضى مِنْ رَسُول.** . ﴾ الجن ٢٦-٢٧ .

وإذا كان هذا حال الأنبياء فمن باب أولى غيرهم، وفي هذا رد على أولئك الذين يدعون لأنفسهم شيئاً من علم الغيب.

ونعود لإكمال ما جرى بين يعقوب عليه السلام، وتحقيق طلب أبنائه بإرسال بنيامين معهم إلى عزيز مصر.

ويظهر من سياق الآيات ـ ان إخوة يوسف عليه السلام لحرصهم على العودة إلى عزيز مصر، لأخذ الميرة لأهليهم، ثم وعدهم له بإحضار أخيهم معهم، حيث هددهم بأنهم ان لم يأتوا به معهم، فلن يكيل لهم مرة أخرى ـ أي ـ لن يبيعهم الطعام الذي حضروا من أجله.

لذلك بادروا بالحديث مع أبيهم حين وصولهم، وقبل أن يفتشوا أمتعتهم وبعد تلك المحاورة مع أبيهم واتهامه لهم بعدم الأمانة والوفاء بالوعد، وانهم

سيفعلون بأخيهم بنيامين مثل ما فعلوا بيوسف عليه السلام ـ ولم يعطهم وعدا بالاذن. وبعد تلك المراجعة لأبيهم والحوار معه رجعوا لتفتيش أوعيتهم فوجدوا ما يساعدهم على الالحاح في طلبهم وهو أن عزيز مصر رجل كريم، فإضافة إلى إكرامهم وإيفاء الكيل لهم، قد أعاد إليهم بضاعتهم التي ذهبوا بها ليعتاضوا بها ذلك الطعام، فأعادوا الطلب مرة أخرى ـ فاستجاب لهم أبوهم بشروط.

يقول تعالى في ذلك: ﴿**ولَمَّا فَتَحوا متاعَهُم وجَدُوا بضاعتهم رُدّتْ إليْهِمْ قَالوا يَأبَانَا مَانَبْغي هَذه بِضاعَتُنا رُدتْ إلينا وَنَمِيرُ أهْلَنا ونحفَظُ أخانا ونَزْدادُ كَيلَ بَعيرٍ ذَلِك كَيْلٌ يَسِيرٌ* قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتَّى تأتُوني موثقاً مِنَ الله لتأتُنّني به إلَّا أنْ يُحاطَ بِكُمْ فلَمّا ءاتَوْهُ مَوثِقَهُم قال الله على ما نقول وكيل**﴾.

وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله.

١٧٨ ـ معاملة الآخرين يجب أن تبنى على الصدق والوفاء بالوعد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد . .

فقـد سبق الحديث في الوصية الماضية عن طلب ـ عزيز مصر ـ من إخوة يوسف عليه السلام، إحضار أخيهم من أبيهم، الذي ذكروه له عند ماجرى الحديث بينهم عن سبب قدومهم إلى أرض مصر ـ حيث اتهمهم بأنهم عيون على بلده.

فقالوا له: انهم لم يقدموا من بلاد كنعان إلى بلاده إلا لطلب الميرة لأهلهم. فلما سألهم مَنْ هم ـ أخبروه أنهم أولاد يعقوب، وانه نبي، فلما سألهم، ألَهم اخوة قالـوا: نعم ـ كنـا اثني عشر، فذهب أصغرنا وهلك في البرية وبقي له شقيق أمسكه أبوه يتسلى به.

ثم إنه أكرمهم حيث أنزلهم في دار ضيافته، وبعد أن وفّى لهم الكيل ورغبهم في الرجوع ـ هدّدَهُم بأنهم إن لم يأتوه بأخيهم ليتضح له صدقهم وانهم لم يقدموا إلا لطلب الميرة، فلن يكيل لهم مرة أخرى.

قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرونَ أَنِي أُوفِي الكَيْلَ وأَنَا خَيرُ المُنْزِلِينَ* فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَاتَقْرَبون** ﴾ ٥٩ـ٦٠ .

لذلك بادروا بالحديث مع والدهم في طلب الإذن لأخيهم بأن يسافر معهم إلى مصر ـ لأن عزيز مصر منعهم من الكيل مرة أخرى إن لم يحضروا أخاهم الذي

ذكروه معهم، ليبرهنوا على صدقهم وأنهم إنما قدموا مصر من أجل الميرة فقط لا لأمر آخر.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ فأرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

فيعقوب عليه السلام قد سبقت له التجربة مع أبنائه في قصة يوسف عليه السلام. حيث طلبوا منه أن يأذن ليوسف في الخروج معهم إلى البرّ بحجة الترويح على يوسف ولينشط ويلعب متعهدين له بحفظه. وذلك بعد تخطيطهم لقتله أو إلقائه في الجب ـ أي ـ البئر.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لاتَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإنَّا له لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾.

وهنا قالوا عن أخيه بنيامين ﴿ .. فأرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾.

ولسابقتهم في عدم الوفاء بما التزموا به له في حفظ يوسف عليه السلام ردّ عليهم بقوله: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ.. ﴾ والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

وهذا يعطيك أيها القارىء الكريم ـ أن المعاملة مع الآخرين يجب أن تبنى على الصدق والوفاء، لتكون مثمرةً مقبولة مستمرة، أما إذا أصابها خلل، فإنها لاتدوم، حتى وان كان صاحبها صادقا فيما بعد، ما دام قد جرب عليه الكذب وعدم الوفاء.

ولهذا فإن يعقوب عليه السلام لم يصدق أبناءه في طلبهم مرافقة أخيهم «بنيامين» في السفر إلى مصر لأخذ الميره، وإن كانوا صادقين في طلبهم، وتعهدهم

بحفظ أخيهم، وعدم الغدر به، وذلك لسابقتهم تلك مع يوسف عليه السلام.

فهو يقول لهم ـ لا آمنكم عليه ـ لأني قد أمنتكم على أخيه من قبل فلم تفوا، وإنكم الآن ستصنعون به مثل ماصنعتم بأخيه من قبل.

ان هذا الحوار كله حدث من إخوة يوسف عليه السلام، مع أبيهم فور وصولهم من مصر، وقبل أن يفتحوا متاعهم الذي رجعوا به من مصر، وقد دعاهم إلى تلك المسارعة الحرص على العودة إلى مصر. لأخذ الميرة لأهليهم. إذ لا يوجد الطعام الذي به قوام الحياة في تلك السنين المجدبة، إلا عند عزيز مصر.

وقد هدّدَهُم إن لم يأتُوا بأخيهم من أبيهم الذي ذكروه له، أن لا يكيل لهم مرة أخرى.

ولمّا لم يصلوا إلى حل إذ لم يعطهم والدهم موافقةً على طلبهم، عادوا للنظر في أمتعتهم وما قَدِمُوا به من أرض مصر.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدّتْ إلَيْهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مَانَبغي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدّتْ إلَيْنَا ونَمِيرُ أهْلَنَا ونَحْفَظُ أخَانَا ونزداد كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** ﴾.

إن أخوة يوسف عليه السلام، وجدوا لهم مدخلاً للعودة إلى مراجعة أبيهم والإلحاح عليه في الإذن ـ لأخيهم ـ بنيامين بالسفر معهم إلى مصر.

فقد ذكروا له ـ إن عزيز مصر أكرمهم وأحسن وفادتهم ومع تلك المعاملة الحسنة، فإنه لم يأخذ منهم الثمن الذي أحضروه معهم ليعتاضوا به طعاما ـ فإنه قد أوفى لهم الكيل، ورد عليهم بضاعتهم.

ولهذا قالوا: مانبغي وراء هذا، إن بضاعتنا رُدت إلينا وقد أوفَى لنا الكيل. ثم قالوا: ﴿**ونَمِيرُ أهْلَنَا**﴾ أيْ ـ إذا أرسلت أخانا معنا نأتِ بالميرة إلى أهلنا

﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير. . . ﴾ وذلك ان يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حِمْلَ بعير، ولذلك الإلحاح من إخوة يوسف على أبيهم، وللحاجة الملحة لجلب الميرة التي لا غنى لهم عنها وافق والدهم يعقوب عليه السلام على إرسال أخيهم معهم بشروط.

كما قال تعالى إخبارا عنه ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتَّى تُؤتُونِ مَوْثِقاً مِنَ الله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ الله عَلى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ٦٦ .

أي ـ تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أنْ يُحاطَ بِكُمْ ﴾ أي: إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه. ﴿ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكده عليهم. فقال ﴿ الله عَلى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لاغنى لهم عنها، فبعثه معهم.

إن يعقوب عليه السلام، بعد أن أذنَ ببعث بنيامين مع إخوته بالسفر إلى مصر، لجلب الميرة لأهاليهم، أوصاهم وصيّةَ والدٍ لأولاده مشفقٍ عليهم، يرجو لهم من الله السلامة والفلاح، فهو يخشى عليهم من أمر يصيبهم، وهو مع ذلك يعلم انه لا يرد عنهم قضاء الله وقدره، وإنما يعمل السبب المأمور به شرعاً، وهكذا الحكم في الشريعة الإسلامية، فإنه ينبغي للمسلم أن يعمل السبب المطلوب منه شرعاً، ويتوكل على الله في تحقيق المطلوب.

يقول الله تعالى اخبارا عن يعقوب عليه السلام بعد ذلك الإذن لأبنائه ﴿ وَقَالَ يَابَنِيَّ لاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أبْوابٍ متفرقَةٍ ومَا أغْنَى عَنْكُم مِنَ الله مِنْ شَيءٍ إنِ الحُكْمُ إلاَّ لله عَلَيْهِ تَوكلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتوكَّل المُتَوكّلونَ ﴾ ٦٧ .

وقد نفذوا وصية والدهم تلك، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُم أبُوهُمْ ماكَانَ يُغْني عَنْهُمْ مِنَ الله من شيءٍ إلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاهَا وإنّهُ

لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ ٦٨ .

ووصيته عليه السلام لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة، ذكر ابن كثير عن ابن عباس وغيره، أنه خَشِيَ عليهم العين وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء. فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حقّ تستنزل الفارس عن فرسه.

قلت: وقد بوب البخاري في صحيحه / باب العين حق / وأورد حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: العين حق. ونهى عن الوشم ح ٥٧٤٠.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، أو هو من جملة ما تحقق كونه. قال المازري: أخذ بظاهر الحديث الجمهور. ولم ينكر ذلك إلا طوائف من المبتدعة لغير معنى. فتح الباري ١٠/٢١٣.

وقوله تعالى عن يعقوب عليه السلام ﴿ **وإنّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا علّمناهُ** ﴾ قال قتادة والثّوري: لذو عمل بعلمه. قلت: وهذه هي الثمرة من العلم، إذ المقصود منه العمل به.

وهكذا تبين هذه الآيات حال يعقوب عليه السلام مع أبنائه عند سفرهم إلى مصر.

فكيف حالهم عند قدومهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف عليه السلام وما جرى لهم بعد ذلك، هذا ما سنتناول الحديث عنه في الوصية التالية إن شاء الله.

١٧٩ ـ لا يجوز أخذ البرىء بذنب غيره

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعــد . .

فقد سبق الحديث عن طلب إخوة يوسف من أبيهم لإذن لأخيهم ـ بنيامين ـ شقيق يوسف عليه السلام بالسفر معهم إلى مصر، وذلك بناء على طلب عزيز مصر احضاره معهم، فقد ذكروا له عند سؤاله لهم عن سبب قدومهم إلى مصر، حين اتهمهم بأنهم قدموا عيونا عليه، وقد تبرؤا من هذه التهمة، وأخبروه أنهم أولاد يعقوب عليه السلام وهو نبي.

ولما سألهم هل لهم أخوة غيرهم، أخبروه بأنهم كانوا اثني عشر، هلك أصغرهم في البرية، وبقي شقيقه عند والده يتسلى به. وبعد أن وفّى لهم كيلهم وجهزهم بجاهزهم ـ طلب منهم إحضار أخيهم الذي ذكروه ـ ثم هددهم، بأنهم إن لم يحضروه معهم ليدل ذلك على صدقهم ـ فلن يكيل لهم مرة أخرى، لأنه سيعتبرهم جواسيس وعيونا على بلده.

وقد أذن والدهم ـ لِبنيامين ـ شقيق يوسف عليه السلام ـ بالسفر معهم إلى مصر ـ لأنهم في حاجة ملحة إلى الميرة ـ إذ لا يوجد طعام للبيع إلا عند عزيز مصر.

وقد كان ذلك الإذن بعد أخذ العهود والمواثيق عليهم بأن يحافظوا على أخيهم الا أن يغلبوا، ثم أوصاهم بألّا يدخلوا من باب واحد وإنما يدخلوا من أبواب متفرقة. وقد نفذوا وصية والدهم تلك فدخلوا من حيث أمرهم أبوهم.

ولكن ماالـذي حدث لهم عنـد وصولهم إلى مصر. ذلك ما جاء بيانه في الآيات التالية:

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٦٩ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه «بنيامين» وأدخلهم يوسف دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والاحسان، ثم اختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي: لا تأسف على ماصنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لايطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه انه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً.

وهذه الخطة والتدبير، توضحها وتبينها الآيات التالية يقول تعالى عن ذلك: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُها العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ. قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ماذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ [٧٠-٧٢] .

يقول ابن كثير: لما جهزهم وحمّل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السّقاية، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل من ذهب قاله ابن زيد، كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

فوضعها في متاع «بنيامين» من حيث لايشعر أحد، ثم نادى منادٍ بينهم ﴿ أَيَّتُها الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾. فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ ﴾ أي: صَاعَهُ الذي يكيل به. ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ قال: وهذا من باب الجعالة. ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾. وهذا من باب الضمان والكفالة.

فهذا موقف صعب يواجهونه في ديار مصر، وهم فيها غرباء لا يعرف الناس

مكانتهم في بلادهم. ثم إن هذا الفعل القبيح ينسب فاعله إلى الإفساد في الأرض. وهم أناس يترفعون عن مثل هذا العمل فليس هو من طبعهم ولا خلقهم، ولهذا أعطوا الأيمان البليغة في نفي تلك التهمة الموجهة إليهم، وقد حكى الله عنهم ذلك الموقف العصيب الذي واجهوه بقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِين* قَالُوا فَمَاجَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِين* قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين* فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِيْنِ المَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ ٧٣-٧٦ .

تبين هذه الآيات ماحدث لأخوة يوسف، حين اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، فقال لهم إخوة يوسف ﴿ **تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِين** ﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، وأخلاقاً حميدة، أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان ﴿ **فَمَا جَزَاؤُهُ** ﴾ أيْ، السارق إن كان فيكم ﴿ **ان كُنْتم كَاذِبِين** ﴾ أي: أيُّ شيءٍ يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ وكان هذا الحوار بحضور يوسف عليه السلام.

﴿ **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ قالوا ذلك لأنهم مستيقنون من براءتهم، فهم لم يسرقوا، وما جاءوا ليسرقوا، لذلك التزموا بحكم السارق في شريعتهم وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام الوصول إليه، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتّشها قبله تَوْرِيةً، ﴿ **ثم استخرجها من وعاء أخيه** ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم، والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه في شريعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ كِدنَا ليوسُفَ** ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله : وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

وقوله : ﴿ مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملكِ ﴾ . أيْ : لم يكن له أخذ أخيه، لو حَكّم شريعة **الملك**، وإنما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولى على أخيه كما استولى عليه بتحكيم اخوته لدينهم وشريعتهم، قاله الضحاك وغيره، فقيّض الله له أن التزم له اخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم .

ويتضمن نص الآية الاشارة إلى مانَالَهُ يوسف من رفعة فقد مدَحَهُ الله بقوله ﴿ **نرفع درجاتٍ مَن نشاء** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم** ﴾ . وإلى مناله من علم، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى . ﴿ **وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ . قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل .

إنـه موقف حرج يواجـه إخـوة يوسف عليه السـلام، وقـد التزموا بحكم شريعتهم في السارق . لأنه ماكان يخطر ببالهم هذا التدبير الذي يعده ـ يوسف عليه السلام ـ وهو عزيز مصر الآن ـ وهم لايعرفون أنه يوسف ـ فأين يوسف الذي رموه في الجب صغيراً، ثم باعوه للسّيارة رقيقا يباع ويشترى كما قال تعالى : ﴿ **وشروه بثمن بخس** ﴾ من عزيز مصر الآن المتصرف في شؤونها، إن هذا لم يخطر لهم على بال . وهم لايعرفون من أنفسهم جميعاً ومنهم ـ بنيامين ـ أن السرقة من سجاياهم، ولكنهم فُوجؤا بما حدث، فبعد التفتيش لأوعيتهم، وُجِدَ الصّواعُ في متاع «بنيامين» . ولهول المفاجأة لم يستطيعوا أن يبدو عذراً إلّا أن يتنصلوا من تلك الفعلة التي وصفوا مرتكبها بالظلم، فقالوا كما حكى الله عنهم ﴿ **قَالُوا إنْ**

يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ فَأَسَرّهَا يُوسُفُ في نَفْسِهِ ولَمْ يُبدِها لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً والله أَعْلَم بِما تَصِفون ﴾ ٧٧ .

فهم الآن يتنصلون أمام العزيز من التشبّه ـ ببنيامين ـ ويذكرون أنه فعل كما فعل أخٌ له من قبل، ويعنون بذلك يوسف عليه السلام. وقد ذكر ابن كثير عن العلماء ما قيل في ذلك.

ولما ذكروا ذلك الاتهام الموجه لبنيامين ـ وأنه ـ سرق لأن أخاً له فعل مثل ما فعل.

قال يوسف عليه السلام ﴿ **أنتم شرٌ مكاناً والله أعلم بما تصفون** ﴾ قال ذلك في نفسه كما قال ابن عباس قال: أسَرّ في نفسه هذه الكلمة وهي قوله: ﴿ **أنتم شَرٌ مكاناً والله أعلم بما تصفون** ﴾ . أي بما تذكرون ولم يبد لهم هذه الكلمة قلت: لأن هذا الاتهام الموجه منهم لأخيهم، وأن له أخا قد صنع مثل ذلك لا دخل له بالموضوع الآن. فإن الأمر قد تعين على أخذ بنيامين وبقائه عند عزيز مصر، كما هو الحكم على السارق في شريعتهم وقد التزموا به، ولكن الأمر الذي يواجههم، أن بنيامين أصبح بيد عزيز مصر وهم قد أعطوا العهود والمواثيق لأبيهم بأن يحافظوا على «بنيامين» وأن يعيدوه إلى أبيه كما قال الله عنه ﴿ **قَالَ لَنْ أرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤتُونِ مَوثِقاً مِنَ الله لَتأتُنَّني بِهِ إلاّ أنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ الله عَلَى مَانَقولُ وَكِيل**﴾ .

ولذلك عادوا يخاطبون عزيز مصر ويتلطفون معه، ويعددون أوصافه وسجاياه وأنه من أهل الخير ومحبي الإحسان. قائلين له ـ إن له أبا شيخاً كبيراً في السن وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده فلا يستطيع فراقه ـ فخذ أحدنا بدلا منه.

ولكن عزيز مصر يرد عليهم بقوله: ان من يكون من أهل الخير والإحسان،

لا يظلم الناس ولا يأخذ بريئاً بجريرة غيره، فمن فعل ذلك يكون من الظالمين وليس من المحسنين يقول الله في ذلك: ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ* قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ** ﴾ ٧٨-٧٩ .

هكـذا رد عليهم يوسف ـ الذي هو الآن عزيز مصر، بأن من أخذ بريئاً بذنب غيره فهو ظالم. فيئسوا من السماح لهم بأخيهم ـ فماذا صنعوا بعد ذلك، هذا هو موضوع الوصية التالية ان شاء الله.



١٨٠ ـ بيان أن الظّلم محرم في جميع الأديان السماوية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بعــــد . .

فلا زال الحديث موصولا عن قصة يوسف عليه السلام مع اخوته وقد سبق الحديث في الوصية السابقة عن ذكر ما حدث من تدبير يوسف عليه السلام، لأخذ ـ أخيه ـ بنيامين ـ من إخوته، بطريقة مناسبة.

كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿ . . . **كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَاكانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِك** . . . ﴾.

وذلك بجعله السّقاية في رحله ـ وهي صواع الملك، بعد أن اختلى به وأخبره بأنه أخوه، وطلب منه كتمان ذلك الأمر عن إخوته.

فبعـد أن كال لهم وجهـزهم بجهازهم، نادى أحد فتيان العزيز في العير بقوله: أيتها العير إنكم لسارقون. فأنكر اخوة يوسف تلك التهمة الموجهة إليهم، قائلين ان السرقـة لاتكـون إلا من المفسـدين في الأرض، وقـد علمتم سِيرَتَنا وأخلاقنا، فذلك العمل الدّنيىءُ ليس من صفاتنا.

ولما سألهم الفتيان عن جزاء السارق عندهم إذا وُجِدَ المسروق في متاعه. أخبروهم ان جزاءه عندهم، أن السارق يسلم للمسروق منه. فذلك هو جزاؤه في شريعتهم، بحيث يُصبح السارق رقيقاً بيد المسروق منه. وبعد التزامهم بهذا الحكم أمر يوسف بتفتيش أمتِعَتهمْ أولاً، ثم تفتيش متاع ـ بنيامين ـ واستخراج الصواع منه.

فأخـذه عزيز مصر بذلـك الحكم. وحين فاجأهم وجود الصواع في متاع

ـ بنيامين ـ لم يستطيعوا أن يردوا جواباً على عزيز مصر، إلاّ أن يتنصلوا من عمل ـ بنيامين ـ هذا، ويقولوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. . أيء ـ أنّنا نبْرأ من التشبـه به في هذا العمـل، وإنما عَمِل مثلَ عَمَلِ أخٍ له من قبل ويعنون بذلك ـ يوسف عليه السلام. فهذا الذي حدث.

ولكنهم وقد أعطوا المواثيق والعهود لأبيهم بالمحافظة على ـ بنيامين ـ وإعادته إليه سالما، عادوا إلى مخاطبة عزيز مصر متلطفين إليه ذاكرين أوصافه وأنه من أهل الفضل والاحسان. وأن لبنيامين أباً شيخاً كبيراً في السن، متعلق به يتسلى به عن ولده الذي فقد. عارضين عليه أن يأخذ أحدهم بدلاً منه.

ولكنّ عزيز مصر ردّ عليهم، بأن من صفات أهل الفضل والاحسان عدم الظلم. وأن أخذ البرىء بذنب غيره ظلم، وهذا لا يمكن أن يحدث منه يقول الله تعالى مخبرا عن ذلك: ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَاً شيخاً كبيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين۝ قَالَ مَعَاذَ الله أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُون** ﴾ ٧٨-٧٩ .

أيْ: لما تعـين أخـذ ـ بنيامـين ـ وتقـرر تركـه عنـد ـ يوسف ـ بمقتضى اعترافهم، شرعوا في طلب الرفق والعطف عليهم، فقالوا: ﴿ **يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً** ﴾ وهو يحبه حُبّاً شديداٍ ويتسلى به عن ولده الذي فقده.

«فخذ أحدنا مكانه» أيْ بدله، يكون عندك عوضاً عنه، ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين** ﴾ أيْ من العادلين المنصفين القابلين للخير فأحسن إلينا به.

فبين لهم عليه السلام، أن من الظّلم، أن يؤخذ البريءُ بذنب غيره.

وهكذا أيها القارىء الكريم، يتضح لك أن الله عز وجل حَرَّمَ الظّلم في كل الشرائع السماوية.

فالله عز وجل قد حَرّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما، وهذا يوسف

عليه السلام، أحد أنبياء بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم اليهود والنصارى. يبين الله على لسانه ـ تحريم الظلم ـ وهذا ما جاء صريحا وواضحا في تعاليم الدين الإسلامي خاتم الأديان السماوية كلها والناسخ للأديان السابقة كلها ولن يقبل الله من أحد ديناً سواه.

فنقول لمن يدعى أنه باق على دين سماوي، لماذا تستحل ظلم الآخرين بسفك دمائهم، وسلب أموالهم، وانتهاك أعراضهم. ولو كنت على دين سماوي صحيح، كما تدعى لما صنعت من ذلك شيئاً، لأن الأديان السماوية كلها مجمعة على تحريم الظلم.

وهذا الظّلم، يبين لكل عاقل أن الذي يمارسه ليس على دين صحيح وإنما هو على دين محرف صنعه لنفسه، مدّعياً أنه من عند الله، وماهو من عند الله. كما بين الله ذلك في كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وتكفل بحفظه، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الكتَابِ مَنْ إنْ تأمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤدِّهِ إلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بدينَارٍ لاَيُؤدّهِ إلَيْكَ إلاَّ مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بأَنَّهُمْ قَالُوا لَيسَ عَلَيْنَا في الأُمّيينَ سَبيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإنَّ مِنْهُمْ لَفريقاً يَلْوُنَ ألْسِنَتَهُمْ بالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتاب وَيقُولون هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَمَاهُوَ مِنْ عِنْدِ الله ويَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون** ﴾ آل عمران / ٧٥-٧٨ .

وهـذا يبـين لكـل عاقل أن ما يصنعه المنتسبون للأديان من ظلم وجور، للشيوخ والأطفال والنساء وهدم للبيوت وتشريد للآمنين من منازلهم في كل بقاع الأرض، هو من تشريعهم لأنفسهم، واتباعاً لأهوائهم مخالفين كلما جاءت به الرسل من عند الله، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أخَذْنا مِيثَاقَ بَني إسْرَائِيلَ وَأرْسَلْنَا إلَيْهِمْ رُسُلاً كُلّمَا جاءَهُم رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذّبُوا وَفريقاً يَقْتُلُون** ﴾ المائدة / ٧٠.

فالله يبين في كتابه أنّ بني إسرائيل لايتبعون إلاَّ أهْواءَهُم، فهذا دينهم الذي يدينون به، وبنو إسرائيل هم اليهود والنصارى.

قال تعالى عن النصارى المتبعين لما جاء به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، حسب دعواهم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الْذِينَ قَالُوا إنَّ الله هُوَ المَسيحُ ابنُ مَرْيَم وَقَالَ المسيح يَابَني إسْرَائِيل اعْبُدُوا الله رَبّي وَرَبَّكُمْ إنّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّم الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنْصَار ﴾المائدة / ٧٢.

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى، كلهم بنو إسرائيل، وبعضهم أولياء بعض لأن الولاء هو المحبة والنصرة. والعدل والانصاف واعطاء الحقوق لأصحابها هو شرع الله الحق، ولايوجد ذلك إلا في تعاليم الإسلام الدين الحق، الذي حفظه الله بحفظ كتابه من التحريف والتبديل.

فالله يقول: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فَلَنْ يقبل منه وَهُوَ في الآخرة مِنَ الخَاسِرين ﴾آل عمران / ٨٥.

وأن أصول الشرائع السماوية كلها المتفق عليها جاءت في كتاب الله عز وجل كما في الوصايا العشر وغيرها. ومنها تحريم الظلم كما قال الله عن يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ الله أنْ نأْخذ إلاَّ مَنْ وَجدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُون ﴾.

وذلك حين عرض اخوة يوسف على يوسف أن يأخذ أحدهم بدلاً من بنيامين. ونعود لإكمال القصة وما تضمنته من عبر وتوجيهات.

يقول تعالى مخبراً عن حالهم بعد امتناع يوسف من أخذ البديل منهم عوضاً عن بنامين ﴿ فَلَمّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُو نَجِيّاً قَالَ كَبيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أنَّ أبَاكُمْ قَدْ أخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ الله وَمِنْ قبلُ مَا فَرَّطْتُمْ في يُوسُفَ فَلَنْ أبْرَحَ الأرْضَ حَتّى يَأْذَنَ لِي أبِي أوْ يَحْكُمَ الله لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ* ارجِعُوا إلَى أبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا

إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ومَا شَهِدْنَا إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَاكُنَّا لِلْغَيبِ حَافِظِينَ. وَسْئَلْ القَرْيَةَ التِي كُنَّا فِيهَا والْعِيرَ التِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإنّا لَصَادِقُون ﴾ / ٨٠-٨٢ .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن إخوة يوسف : انهم يئسوا من تخليص أخيهم . بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع عليهم ذلك «خلصوا» أي : انفردوا عن الناس «نجيًّا» يتناجون فيما بينهم - فيما يعملون به . في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم - قال كبيرهم ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَـاكُمْ قَدْ أَخَـذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ الله ﴾ لتردنّه إليه . فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك ، مع ماتقدم لكم من اضاعة يوسف عنه . ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي : لن أفارق هذه البلدة ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عنى ، ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه ، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه ، ويبرءوا مما وقع .

فقال ﴿ ارجِعُوا إلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ وذلك لأنهم قد شاهـدوا استخـراج صواع الملك من وعـائه ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل المعنى : ماشهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ، ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال عكرمة وقتادة : ما نعلم أن ابنك سرق .

وقال عبدالرحمن بن أسلم : ما علمنا في الغيب أنه يسرق له شيئاً وإنما سألنا ما جزاء السارق .

ولما كانوا موضع ريبةٍ عند والدهم بسبب ماضيهم مع يوسف عليه السلام ، أضافوا أدلة يستشهدون بها على براءتهم وهو من تمام قول كبيرهم قالوا : ﴿ وسْئَلِ القَريَةَ الّتِي كنَّا فِيهَا ﴾ .

والمراد أهلها، لأن القرية لاتطلق إلا على القرية ذات السّكان ﴿ **التي كنا فيها** ﴾ أي مصر. واطلاق السؤال للقرية والمراد أهلها. أسلوب عربي معروف متداول ـ يرسل صاحب الدابة الضَّالة شخصاً للبحث عن ضالته في القرى المجاورة، فيرجع المرسول بعد البحث فيقول لمن أرسله لم أترك قرية من هذه القرى إلا سألتها فلم أجد خبراً عنها.

فهو لا يقصد بقوله هذا انه سأل جدران القرية وحيطانها وبيوتها، وإنما يقصد انه سأل أهلها الساكنين فيها، وهكذا المرسلُ له، يفهم منه أنه سأل أهل القرية.

وقوله: ﴿ **واسأل العير التي أقبلنا فيها** ﴾ أيْ، أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب، ذهبوا إلى مصر، يمتارون لأهلهم ﴿ **وإنّا لصادقون** ﴾ فيما قلنا ـ وجاءوا بهذه الجملة مؤكدةً هذا التأكيد، إنّ ماقد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا. ولهذا قال لهم بعد ذلك التأكيد كله: ﴿ **بلْ سَوّلَتْ لكم أنفسكم أمراً فصبر جميلٌ عسَى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم** ﴾ وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله.

١٨١ ــ الثقة بالله وعدم اليأس من صفات المؤمنين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـا بعــــد . .

فلا زال الحديث عن قصة يوسف عليه السلام مع إخوته عند وصولهم إلى مصر ومعهم شقيقه ـ بنيامين ـ ثم أخْذُه له منهم بتدبير الله له كما في قوله تعالى: ﴿ . . . **كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَاكانَ لِيَأْخُذَ أخَاهُ في دِين الملك** . . . ﴾. وذلك أنه أخذه منهم بحكم شريعتهم في السارق وهو استرقاقه وتسليمه للمسروق منه كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾.

وقـد وُجـد صواع **الملك** في متـاع ـ بنيامـين ـ كما في قولـه تعالى: ﴿ **فَبَدَأَ بَأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أخِيهِ** ﴾ ـ يعني في تفتيشها ـ ﴿ **ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أخِيهِ** . . . ﴾.

فتعـيّن بذلـك أخْـذ بنيامين، وتقرّر تركهُ عند يوسف بمقتضى اعترافهم بالحكم في شرعهم، ولكنهم وقد تعهدوا لوالدهم برده إليه، عرضوا على يوسف أن يأخذ أحدَهم بدلاً منه، مُعلّلين طلبهم ذلك بحال والده الشيخ الكبير الذي لا يستطيع فراقه فهو يتسلى به عن ولده الذي فقده. فبين لهم يوسف عليه السلام أنه لا يجوز ولا يحل أنْ يُؤخذ البريء بذنب غيره، وأن من فعل ذلك يُعدُّ ظالما ﴿ **قَالَ مَعَاذَ الله أنْ نَأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُونَ** ﴾.

ولّما يئسوا من تخليص أخيهم ـ انحازوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، فيما يصنعونه مع والدهم ـ فذكّرهم كبيرُهم بالعهود والمواثيق التي التزموا بها لوالدهم،

ثم بتفريطهم السابق في يوسف من قبل أخيه هذا ثم أخبرهم بأنه لن يعود معهم، وألزم نفسه بالبقاء في أرض مصر حتى يأذن له والده بالرجوع راضياً عنه، أو يتمكن من تخليص أخيه ليعود به معه. ثم أمر إخوته بالرجوع إلى والدهم يعقوب عليه السلام وأن يقصُّوا عليه ماجرى لهم، ويدلِّلوا على صدقهم ـ بأن ـ بنيامين سرق وذلك بسؤال أهل القرية التي حدث فيها ذلك الأمر وهي مصر.

وسؤال أهل العير الذين رافقوهم إلى مصر، لأخذ الميرة لأهليهم، وهم جيران يعقوب عليه السلام ولكن تجربته السابقة معهم في أخذهم ليوسف عليه السلام، وتعهدهم له بحفظه، ثم عدم وفائهم بذلك التعهد، جعلته لا يأبه بدعواهم ولا يصدقهم في قولهم، وقد قال لهم عندما طلبوا منه الإذن لبنيامين أن يرافقهم إلى مصر قال: ﴿ . . **هل ءَامَنُكُم عَلَيْهِ إلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُم عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ** . . ﴾.

وهذا يدلك أيها المسلم، على أن من أراد الخير لدينه ودنياه، أن يلزم الصدق، لأن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة ـ ويبين لك أنَّ من تعود الكذِب والخداع وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق، لايصدقه الناس ولايثقون فيه، وان كان في بعض الأحوال صادقا وذلك بسبب ماجرت به عادته واشتهر به أمره، فاحذر من هذا الخلق الذميم، تفز في الدنيا والآخرة، والآيات التالية تبين لك أيها القاريء الكريم موقف يعقوب عليه السلام من أبنائه حينما قصَّوا عليه ماحدث من (بنيامين) وتُبيِّن حال يعقوب عليه السلام الصّابر الصبر الجميل، كما تبين ثقته بالله عز وجل وعدم اليأس من رحمته وفضله، بإرجاع أولاده إليه جميعاً.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرَاً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى الله أَنْ يَأْتِيَنِي بهم جَميعاً إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ* وَتَولَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ* قَالُوا تَالله تَفْتَؤُا تَذكُر يُوسُفَ**

حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكينَ. قَالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله وأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لا تَعْلَمُون ﴾ ٨٣-٨٦ .

يقـول ابن كثير رحمه الله : قال لهم يعقوب عليه السلام كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ **بَلْ سَوّلتْ لكُم أنفُسُكُم أمْراً فصبرٌ جميل** ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظنَّ أنها كفعلتهم بيوسف. وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه، وصح قوله ﴿ **بل سولت لكم أنفسُكُم أمراً فصبر جميل** ﴾ ثم ترجّى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال : ﴿ **عسى الله أن يأتيَني بِهِمْ جميعاً إنّه هو العليم** ﴾ بحالي، «الحكيم» في أفعاله وقضائه وقدره، يعلم ما وراء هذه الامتحـانات والابتلاء، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب الذي حدده له، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج. ﴿ **وَتولّى عَنْهُم وقَالَ يَأَسَفَى عَلَى يوسُفَ وابْيَضّتْ عَيناهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُو كَظِيمٌ** ﴾ .

وهـذه صورة مؤثـرة، فقـد أعرض يعقوب عن بنيه، وتذكّر حزن يوسف القديم، فإنه يحس انه منفرد بهمه، وحيد بمصابه لايشاركه فيه أحد من الذين حولـه، فيتذكر يوسف الذي لم ينسه، والذي تُذكّرُه به نكبته الجديدة في أخيه «بنيامين» فتغلبه على صبره الجميل ﴿ **يأسفى على يوسف** ﴾ ولكنه عليه السلام يكظم حزنه ويتجلد، وقد أثّر ذلك الكظم وظهرت عليه آثاره حتى تبيضّ عيناه حزناً وكمداً.

﴿ **وابيَضّتْ عينَـاهُ من الحـزنِ فَهُو كظيم** ﴾ أيْ ساكتٌ لايشكو أمره إلى مخلوق قاله قتادة وغيره.

وأخرج عبدالرزاق عن سعيد بن جبير قال: لن يُعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿ **يأسفَى على يوسف وابيضّتْ عيناه من الحزنِ فَهُو كظيم** ﴾.

قلت: ويعني بالاسترجاع عند المصائب لهذه الأمة ماجاء في قوله تعالى: ﴿ **الّذِينَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قَالُوا إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعون** ﴾ البقرة/١٥٦ .

وقد ذكر الله جزاء هؤلاء في قوله ﴿ **أُولئِكَ عَلَيْهم صَلواتٌ مِنْ ربّهم ورحمةٌ وأولِئكَ هُمْ المهتدون** ﴾.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير الآية: نعم العِدْلَانِ، ونعمت العلاوة ﴿ **أولئكَ عليهم صلوات من ربهم ورحمة** ﴾ فهذان العدلان ﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾ فهذه العلاوة وهي ماتوضع بين العِدْلَين، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطُوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة:

منها مارواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مامن عبدٍ تصيبه مصيبة فيقول: ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها. قالت: فلما تُوفي أبو سلمة، قلت: كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ.

فهكذا المسلم إذا أصابته مصيبة، بفقد قريب له من ولد وغيره، أو أصابته مصيبة في ماله أو غير ذلك من مصائب الدنيا يتسلى بقوله هذا عما أصابه فيقول: ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ أي ـ إنا عبيد له والله يتصرف في عبيده بما يشاء ـ ويعلم أن الله لايضيعُ لديه مثقال ذرة يوم القيامة فيحدث ذلك له اعترافه بأنه عبدٌ لله وأنه راجع إليه في الدار الآخرة وأن يدعو بما علمه رسول الله ﷺ وهو قوله: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف علي خيراً منها.

وهذا ما أشار إليه سعيد بن جبير رحمه الله بقوله: لم يعط أحد غير هذه الأمة.

الاسترجاع ـ أيْ ـ القول: عند المصائب ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾.

ثم قال: ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿ **يأسفى على يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾. أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق.

قال ابن كثير: فعند ذلك رقّ له بَنُوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه ﴿ **تَالله تَفْتَؤُ تَذْكُر يُوسُفَ** ﴾ أي: لاتفارق تذكر يوسف ﴿ **حتَّى تَكُونَ حَرَضاً** ﴾ أيْ: ضعيف القوة، ﴿ **أوْ تَكُون مِنَ الهالكين** ﴾ يقولون: ان استَمرَّ بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

فأجابهم على قولهم هذا بقوله ﴿ **قَال إنّما أشْكُو بثّي وَحُزْني إلى الله** ﴾ أيْ: هَمّي وما أنا فيه إلى الله وحده، ﴿ **وأعلم من الله مالاتعلمون** ﴾.

فعن ابن عباس ـ يعني: رؤيا يوسف أنّها صدق، وأن الله لابد أن يظهرها وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له؛ أي أنَّه لاَزَالَ على قيد الحياة وسيجمعني الله به وأسجد له ويعني بذلك قوله تعالى عن رؤيا يوسف ﴿ .. **إني رأيتُ أحَدَ عشرَ كوكباً والشّمسَ والقَمرَ رأيتُهم لي سَاجِدين** ﴾.

قلت: ويعني بالسجود التحية في شريعتهم، وسيأتي الحديث عن السجود عند قوله تعالى: ﴿ ... **وخَرُّوا لهُ سُجّداً** ﴾ وبيان ماجاء في الشريعة الإسلامية من تحريم السجود لغير الله عز وجل.

ثم إن يعقوب عليه السلام بعد الحديث مع أبنائه، وإخباره لهم أنه يعلم من الله مالايعلمون ـ حثّهم على البحث عن يوسف وأخيه، وأن لا ييئسوا من روح الله. أي لايقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء. ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

وهذا ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية ان شاء الله.

١٨٢ ـ بيان أن دين الأنبياء واحد مع اختلاف الشرائع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد . .

فقد وصلنا في الحديث عن قصة يوسف عليه السلام ـ لأخذ العبر والوصايا والأحكام من أحداثها، إلى بيان مايجري بين يعقوب عليه السلام، وأبنائه ـ عن يوسف وأخيه ـ بنيامين ـ الذي أصبح غائباً عن أبيه كيوسف عليه السلام.

بل أصبح في حكم الأسير في مصر، متهماً بالسرقة، معاقباً عليها بما تقرر في شريعة يعقوب عليه السلام ـ وهو أخذ السارق وتسليمه للمسروق منه ليصبح رقيقاً جزاء جريمته.

وهذا حكم السارق في شريعة يعقوب عليه السلام، كما قال تعالى في سورة المائدة عند الحديث عن شرائع الأنبياء. المتفقة في الأصول المختلفة في الشرائع والأحكام، قال تعالى: ﴿. . . **لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهاجاً**. . . ﴾ أيْ: سبيلا وسنة.

قال ابن كثير: (أيْ ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلاة ديننا واحد. وهو التوحيد كما قال تعالى ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمّةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾.

إن يعقوب عليه السلام حين قال له أبناؤه: إن أخاهم ـ بنيامين ـ شقيق يوسف الذي أخذوه منه ـ متعهدين بحفظه ورده إليه سالما ـ قد سرق، وإنه أخذ بجريمته فأصبح بيد عزيز مصر رقيقاً ـ ثم قدّموا كل ما يستطيعون من أدلة تثبت

صدق دعواهم، لم يقبل منهم والدهم ذلك لسابق تجربته معهم في يوسف، ورد عليهم بقوله: ﴿ . . . **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عَسَى الله أنْ يَأتِيني بِهِمْ جميعاً** . . . ﴾. أي: - يجمعني بأبنائي الثلاثة - يوسف عليه السلام، وشقيقه - بنيامين - وكبيرهم الذي بقى بمصر وقال: ﴿ **لن أبرح الأرضَ حَتَّى يَأذَنَ لِي أبِي أوْ يَحْكُمَ الله لي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكمين** ﴾ ثم ان يعقون عليه السلام وهو النبي الكريم، لم يَشْكُ أمره إلى أحد من الناس، فالأمر كله لله فلا أحد من النـاس يستـطيع أن يقـدم له نفعاً ولا يلاقي أحد من الناس مايلاقيه من هَمّ وحزن، فيشكو إلى الله وحده ﴿ **قال إنّما أشْكُو بَثّي وحُزْني إلَى الله** . . . ﴾.

ثم قال وهـو خطاب موجه لأبنائه الذين قالوا له ﴿ **قَالُوا تَالله تَفْتَئو تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُـونَ حَرضـاً أوْ تَكُـونَ مِنَ الهَالِكين** ﴾ قال: ﴿ **وأعْلَمُ مِنَ الله مَالاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ فهو قويّ الثّقة بالله، ويرجو منه أن يعيد إليه أبناءه ويجمعه بهم. لعلْمه أن رؤيا الأنبياء حق، وأن تلك الرؤيا التي قصّها عليه يوسف عليه السلام سوف تتحقق، وقد أمره حينذاك بإخفائها عن إخوته حتى لا يحسدوه ويكيدوا له كيدا وهي ماجاءت في مطلع هذه السورة العظيمة: حيث قال تعالى: ﴿ **نَحنُ نَقصُ عَلَيْكَ أحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أوْحَينا إليْكَ هَذا القُرآنَ وَإنْ كُنْتَ مِنْ قَبلِه لَمِنَ الغَافِلِينَ* إذْ قَالَ يُوسُفُ لأبِيهِ يَأَبَتِ إنِي رَأيتُ أحَدَ عشَرَ كَوْكَباً والشّمسَ والقَمَرَ رَأيْتُهُم لِي سَاجِدِينَ* قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كيداً إنّ الشَّيْطَانَ للإنْسَـانِ عَدُوٌ مبـين* وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ ربُكَ وَيُعَلّمُكَ مِن تأويل الأحاديث ويُتمُّ نعمته عليك** . . . ﴾ فهو يعلم ان هذه الرؤيا سوف تتحقق.

ولهذا قال لبَنِيْهِ بعد أن انتهى الحوار بينه وبينهم وخَوفُهم عَليه من الهلاك ان استمر به الحال في ذكر يوسف عليه السلام قال لهم كما حكى الله ذلك عنه بقوله تعالى ﴿ **يَابَنِيّ اذْهَبُوا فَتَحَسّسوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخيهِ وَلاَ تَايْئَسُوا مِنْ رَّوْح الله إنَّهُ لاَيَايئسُ مِنْ رَّوْحِ الله إلاَّ القَوْمُ الكَافِرونَ* فَلَمّا دَخلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّها العَزيْزُ**

مَسَّنَا وأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إنَّ الله يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ٨٧-٨٨ .

يقول ابن كثير في تفسيره : يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام : إنه ندب بنيه إلى الذهاب في الأرض يَستَعْلِمُون أخبار يوسف وأخيه - بنيامين - قال : والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشّر.

قلت : وهذا غالبا ، وإلا فقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : « لا تجسَّسُوا ولا تحسَّسُوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا » .

قال الأوزاعي : التحسس البحث عن الشيء ، والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون ، أو يتسمَّع على أبوابهم - وهو من الأخلاق الذميمة .

نعود إلى كلام يعقوب عليه السلام مع بنيه - فإنه مع ندبه لأبنائه في البحث عن يوسف وأخيه بشرهم وأمرهم أن لا ييْأسوا من روح الله - أيْ ، لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييْأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

أما المؤمنون بالله الموصولة قلوبهم به . فإنهم لا ييأسون من روح الله ، ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق لأنهم يعلمون من سنن الله إن مع العسر يسرا وإنه بعد الضيق والهم فرجاً ومخرجاً .

وتشير الآيات الكريمة انهم ذهبوا كما أمرهم أبوهم حتى دخلوا مصر ودخلوا على يوسف - الذي هو عزيز مصر ، وهم لا يشعرون ، قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيهِ قَالُوا يأَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَينَا إنَّ الله يُجزِي المتصدّقين** ﴾ فهذه الآيات تشعر بأن في حديثهم

انكساراً، لم يعهد في أحاديثهم السابقة، وشكوى من الفاقة والمجاعة تدل على حاجتهم الماسة وتبين ما بلغه حالهم من الجهد والتعب، فهم يعنون ـ بالضرّ ـ الجدب والقحط وقلّه الطعام. والبضاعة المزجاة، يعنون به ـ ثمن الطعام الذي نمتاره. وهو ثمن قليل لا يساوي مانطلبه منك، ولكننا نطلب منك التجاوز عنه ـ وأن تُوفِ لنا الكيل، أيْ تعطينا بهذا الثمن القليل ماكنت تعطينا قبل ذلك.

وقولهم «وتصدق علينا» قال ابن جريج برد أخينا إلينا.

وقال سعيد بن جبير والسدي: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها.

قال ابن كثير: وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله « فَأَوْفِ لَنَا الكيلَ وتصدق عَلَينَا إنَّ الله يَجْزِي المتصَدّقين » رواه ابن جرير عن الحارث.

إنه بعد ما بلغ الأمر بإخوة يوسف إلى هذه الحالة التي هم فيها، من الحاجة والضيق، واظهار هذه الشكوى والانكسار أمام العزيز، وهم لا يعرفون أنه يوسف عليه السلام، لما رأى حالهم وتذكّرَ أباه وماهو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع مافيه يوسف من الملك والتصرف والسعة، أخذته رقة ورأفة وشفقة على أبيه وإخوته، ففاجأهم بما لا يخطر لهم على بال ولنسمع لهذه الآيات التي تبين تلك المفاجأة، وما يتبعها من عمل الاحسان إلى المسيئين، مما لا يقوم به إلا الكرام، وقد وصف رسول الله ﷺ يوسف عليه السلام بأنه الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

يقول الله تعالى مخبرا عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وأخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته قال: ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ* قَالُوا أءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ**

قَالَ أنَا يُوسُفُ وَهَذَا أخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وإنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

إن الحديث عن ما تضمنته هذه الآيات الكريمة من عفو يوسف السريع عن إخوته مع ما ارتكبوه من آثام في حقه، من التآمر على قتله أولاً، ثم الاجماع على إلقائه في الجب، ثم بيعه للسّيارة الذين وجدوه في البئر، وما واجهه بعد ذلك من محن. سيكون في الوصية التالية ان شاء الله مع مقارنته بقول المصطفى ﷺ لقومه الذين أخرجوه من مكة، عندما فتحها الله عليه: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وكل ذلك كان بعد اعترافهم بالخطأ الذي ارتكبوه في حق النبيين الكريمين، ولك أيها المسلم فيهما القدوة الحسنة في العفو والصفح عن المخطئين، فإلى ذلك الحديث.

١٨٣ ـ بيان أنّ الابتلاء بالشّر والخير فتنة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد . .

فقد سبق الحديث في الوصية الماضية عن قصة يوسف مع إخوته بعد أن أصبح أخوهم ـ بنيامين ـ شقيق يوسف عليه السلام ـ عند عزيز مصر رقيقا ـ بسبب ما دُبّر لأخذه من جعل صواع الملك في متاعه، فظهر بمظهر السارق، وطبق في حقـه حكم السـارق في شريعـة يعقـوب وهو أخذ السارق وتسليمه للمسروق منه.

وقد يئسوا من تخليصه من عزيز مصر ـ وهم مع ذلك لا يعلمون أن الذي يتعاملون معه من سنين ـ إنه يوسف عليه السلام الذي هو الآن ـ عزيز مصر ـ يتصرف فيهـا كيف يشاء، فقد مكنه الله ذلك التمكين ـ بعد الاسترقاق، ثم السجن السنين الطويلة وهذا الجزاء عاجل الحياة الدنيا مع ماادّخره الله له في الآخرة، لأن الله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين.

أما إخوته فقد جاءوا إليه في هذه المرة التي أمرهم فيها والدهم أن يبحثوا عن إخوانهم الثلاثة، يوسف، وبنيامين وكبيرهم الذي بقي بمصر ينتظر إذن والده له بالرجوع! ولا ييأسوا من رحمة الله لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

وقد دخلوا على ـ عزيز مصر ـ مظهرين ما أصابهم من الجهد والضيق بسبب القحط مع المصيبة التي واجهتهم وهي أخذ أخيهم ـ بنيامين ـ وقد تعهدوا لأبيهم بحفظه واعادته وقالوا له كما حكى الله عنهم ﴿ **فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مَسَّنَـا وأهْلَنَا الضّر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إِن الله يجزي المتصدقين** ﴾ .

ولما وصل بهم الأمر إلى هذه الحال، ورأى يوسف ماهو فيه من العزّ والنّعمة وما بإخوته من الحاجة والفاقة. وما وصل إليه حال والده الحزين عليه أولاً ـ ثم على أخيه من بعـده، أشفق عليهم ورحمهم فواجههم بما كان يخفيه عليهم كما حكى الله عنه ذلك بقوله: ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ• قَالُوا أَءِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَيُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ• قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ• قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

ان ما تضمنتـه هذه الآيات الكـريمة تستدعي من المؤمن الوقوف عندها والتأمل فيها للاستفادة من توجيهاتها ووصاياها الحكيمة والأخلاق السامية التي ينبغي للمؤمن التخلق بها في معاملاته مع الآخرين من الأقارب وغيرهم.

فيوسف عليه السلام قد واجه من إخوته تلك القسوة في معاملتهم له، وأيّ قسوة أشد من التآمر على قتله كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿ **اقتلوا يوسف** ﴾ ثم اجماعهم على رميه في ـ الجب ـ وهي البئر كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَةِ الجُبِّ...** ﴾.

وما تَبِعَ ذلك من محن وابتلاءات لايتحملها ويصبر على أحداثها وألمها إلا المؤمنون المتقون ـ وهكذا كان يوسف عليه السلام. والابتلاء للمؤمن يكون بالشرّ والخير كما قال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشّرِ والخَيرِ فتنَةً وإلَيْنَا تُرجَعُون** ﴾ الأنبياء/ ٣٥.

وقد صبر على الابتلاء بالشرّ من حين إلقائه في الجب ـ ثم بيعه عبداً رقيقاً مهـانـاً مستـذلاً ثم امتحان امرأة العزيز له، ثم السجن الذي مكث فيه زمنا طويلا. وقد تجاوز تلك المحن كلها بالصبر والتقوى.

وهو في دور الابتلاء بالخير، فبعد الذّل والإهانة بالسجن وغيره ـ أصبح الآن عزيز مصر يتصرف فيها كيف يشاء كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي**

الأرضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ولانُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ثم اننا نرى إخوته الآن، الذين كانوا في موضع القوة والشدة عليه حينما أخذوه من والده بتلك الحيلة التي دفعهم لها الشيطان كما قال تعالى عن يوسف: ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطانُ بَيني وبَيْنَ إخوتي . . ﴾ بدعوى إيناسه والترويح عليه ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وهو صغير السّن ضعيف لا يستطيع أن يدفع أذاهم عن نفسه لأنهم بعد أن خرجوا به من عند أبيه بلحظات تقاذفته أيديهم بالضّرب وألسنتهم بالشّتم، وكلّما لجأ إلى أحدهم مستنجدا به لا يجد منه إلا الضرب والشتم، ثم دلوه في البئر. وقطعوا به الحبل. وقد لطف به ربه وخالقه فنجاه من ذلك كله، وقد دَالَتْ الأيَّام، فأصبح الأقوياء أمام ذلك الضعيف ضعفاء. يتوسلون إليه ويشكون حالهم ويطلبون منه مدَّ يد العون لهم، وهو الآن القوي الذي يستطيع أن يأخذ بثأره منهم بما يشاء، قال تعالى مخبرا عن حالهم: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّها العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضرُّ وَجِئْنا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَينا إنّ الله يَجْزي الْمُتَصدّقِينَ ﴾ .

هكذا صارت حالة أولئك الأقوياء. فكيف عاملهم يوسف عليه السلام هل قسى عليهم، أو وبّخهُم وأهانهم، وعاملهم كما عاملوه والله يقول: ﴿ وجزاء سيئَةٍ سَيئَةٌ مِثْلُها . . ﴾ ثم قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فأَجْرُهُ عَلَى الله . . . ﴾

الشورى / ٤٠ .

انه عليه السلام لم يأخذ بالجزاء بالمثل وكان ذلك له شرعاً، وبيده تنفيذاً، ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً، وإنما أخذ بالشطر الثاني من الآية الكريمة وهو العفو عنهم، فعاملهم معاملة الكرام، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم كما وصفه رسول الله ﷺ بذلك.

ولنقرأ أيها المؤمن تلك المعاملة الحسنة كما وردت في كتاب الله عز وجل لنستفيد منها في حياتنا العملية في معاملة من أساء إلينا، لأن المسلم مطالب بالتخلق بكل ماورد في كتاب الله، وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن أخلاق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

ولنقرأ ما حكاه الله عز وجل عن يوسف مع اخوته فقد قال لهم بعد أن عرضوا عليه حالهم وهم لا يعرفون انه يوسف، وإنما يخاطبون عزيز مصر، الذي لم يدر بخلدهم أن يصل يوسف إلى ذلك المكان.

﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمتُمْ مّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وأخِيهِ إذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾.

هكذا قال لهم حينما وقفوا أمامه ضعفاء مستكينين يطلبون منه العون والمساعدة بقبول ما أحضروه من ثمن لطلب الميرة لأنه لايساوي شيئاً، ثم التصدق عليهم.

وهنا وقفة مع قوله ﴿ ... **هَلْ عَلِمتُمْ مّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وأخِيهِ** ﴾ وقوله ﴿ **أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾.

فالاستفهام في الآية لتعظيم القصة، ولا يراد به نفس الاستفهام عما صنعوه لأنهم يعلمونه. قال ابن الأنباري: والمعنى: ما أعظم ما ارتكبتم وأسمج ما آثرتم من قطيعة الرحم وتضييع الحق. وما فعلوه بيوسف معلوم وهو ما تقدم ذكره في هذه السورة وأشرنا إلى أطراف منه في الوصايا الماضية.

ولكن ما الذي فعلوه بأخيه ـ بنيامين ـ وهم لم يسعوا في حبسه وتسليمه لعزيز مصر ـ أسيرا رقيقا ـ ولا أرادوا ذلك، وإنما يسعون لفكاكه وتخليصه وقد عجزوا عن ذلك.

وقد أجاب بعض المفسرين على ذلك، وهو أن ما فعلوه بأخيه، هو ما أدخلوه

عليه من الغم بفراق أخيه يوسف وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة . ولم يذكر أباه يعقوب مع انه ناله منهم ما قصه الله في هذه السورة من صنوف الأذى تعظيما له ورفعا من قدره وعلماً بأن ذلك كان بلاءً له من الله عز وجل ليزيد في درجته .

وأما قوله : ﴿ **وأنتم جاهلون** ﴾ فسنكمل الحديث عنه في الوصية التالية إن شاء الله .

١٨٤ ـ كل شيءٍ عُصيَ الله به فهو جهالة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـد . .

فقد سبق الحديث عن مواجهة يوسف لاخوته بقوله لهم: ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتُمْ جاهلون** ﴾.

وبينا أن ما فعلوه بيوسف ظاهر كما قصة الله في هذه السورة، وانه لا يقصد بالاستفهام الا تعظيم القصة وشناعة ما ارتكبوه في حقه وحق والدهم لأنهم يعلمون ذلك.

ولكن لما كان ما صنعوه بأخيه غير ظاهر في أحداث القصة لأنهم لم يسعوا في أسره عند عزيز مصر، وإنما كانوا يسعون في تخليصه وقد عجزوا.

ولذا أشرنا إلى كلام المفسرين في الإجابة على هذا السؤال: وهو ماذا صنعوا بأخيه ـ وخلاصته: بأن ما فعلوه به هو ما ادخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والاهانة. وبقى الحديث عن قوله ﴿ . . . **إذْ أنْتُم جَاهلون** ﴾.

فهل كانوا يجهلون حكم ما ارتكبوه، من عقوق والدهم، والتآمر على قتل يوسف أولا، ثم الاجماع على إلقائه في الجب ـ أي ـ البئر وهو مظنة الهلاك. إن عقوق الوالدين. وقتل النفس المعصومة من الأصول التي اتفقت على تحريمها جميع الشرائع.

فهم لا يجهلون ذلك الحكم، وإنما ارتكبوا تلك المعصية بدافع الحسد

والهوى وتزيين الشيطان، وقد اعترفوا بخطئهم ذلك كما حكى الله عنهم قولهم ﴿ قالوا تالله لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَينا وَإنْ كُنَّا لَخاطِئين ﴾ .

كما دلت نصوص الشريعة أن كل من عصى الله بذنب عمدا كان أو غيره، أنه جاهل قال تعالى: ﴿ إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبَ الله عَلَيْهِمْ وكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ النساء/ ١٧ .

قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيءٍ عُصي الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره.

وعن مجاهد قال: كل عامل بمعصية لله فهو جاهل حين عملها.

وعن ابن عباس: مِن جهالته عمِل السوءَ.

فقوله ﴿ إذْ أنتم جاهلون ﴾ فيه نفي العلم عنهم، واثبات صفة الجهل ـ لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم. وقيل انه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم فكأنه قال: إنما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته، وما يترتب عليه. وقولهم: ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ الله عَلَيْنَا إنَّهُ مَن يَتّقِ وَيَصْبِرْ فِإنَّ الله لاَيُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنينَ* قَالُوا تَالله لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَيْنَا وَإنْ كُنَّا لَخَاطِئين* قَالَ لاَتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحِمِينَ ﴾ .

ان النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله تبين أن سنة الله جرت، ان الأمر إذا اشتد وضاق الحال حصل الفرج كما قال تعالى: ﴿ فَإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً* إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ وقد ضاق الحال على أخوة يوسف كما وضحت الآيات ذلك.

وحين وجه لهم هذا السؤال وهو قوله ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف ﴾ تنبهوا وفهموا انه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو فقالوا متعجبين ومستغربين ﴿ قَالُوا

أئِنّكَ لَأنْتَ يُوسُفُ ﴾ فهو استفهام يدل على الاستعظام، أي انهم تعجبوا من ذلك لأنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ **أَئِنَّكَ لَأنْتَ يُوسُفَ قَالَ أنَا يُوسُفُ وَهَذَا أخِي** ﴾.

يقول بعض المفسرين: إنما أظهر الاسم، ولم يقل: أنه هو تعظيما لما وقع به من ظلم إخوته له، فكأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه، المراد قتله، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني ولهذا قال: ﴿ **وهذا أخي** ﴾ وهم يعرفونه وإنما قصد: وهذَا المظلومُ كظلمي. والله أعلم.

ثم تحدث بنعم الله عليه وعلى الناس جميعاً حيث قال ﴿ **قَدْ مَنَّ الله عَلينَا** ﴾ وذلـك بالجمع بعد الفرقة، وبكل خير في الدنيا والآخرة، مُبيّناً أن هذه النعم وغيرها يمنّ الله بها على عباده المتقين لله في جميع شؤونهم، فإن التّقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي. وهكذا كان يوسف عليه السلام ممتثلا لكل ما أمره الله به. منتهيا عما نهاه عنه، كما بينت ذلك الآيات السابقة فقد قام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ودعوة الناس إلى التوحيد، والإحسان إليهم. ثم امتناعه عن ارتكاب مانهى الله عنه مع وجود المغريات، والتمكن من الفعل. ﴿ **انه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين** ﴾ فهو عليه السلام من المتقين ـ الصابرين ـ.

واعلم أيها القارىء الكريم ـ ان الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به. وصبر عما نهى الله عنه، وصبر على ما قدره الله من المصائب. ويوسف عليه السلام قد مرت عليه هذه الأنواع الثلاثة كلها. وقد جاء في صحيح البخاري مرفوعاً في الرقاق باب الصبر على محارم الله قوله ﷺ « ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسـع من الصـبر» وفي صحيح مسلم: «الصـبر ضياء». والله تعالى يقول: ﴿ ... **إنّما يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيرِ حِسَابٍ** ﴾ الزمر/ ١٠ . وفي هذه الآية

الكريمة قوله: ﴿ إنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإنّ الله لاَ يُضيع أجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وهكذا يوسف عليه السلام، فإن التقوى والصبر من الإحسان، وقد وفَّاه الله أجره العاجل في الدنيا بما مكنه في أرض مصر يتصرف فيها كيف يشاء. مع ما أعـدّهُ الله له من الأجر العظيم والثواب الجزيل في الآخرة كما قال تعالى في الآيات السـابقـة: ﴿ وكَذَلِكَ مَكّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرض يَتَبوأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ برحْمَتِنَـا مَنْ نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أجْرَ الْمُحْسِنِينَ• وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيرٌ لِلّذِين آمنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

فهذا حال يوسف مع إخوته وحواره معهم حينما عرفهم بنفسه سائلا لهم عن عملهم الذي ارتكبوه في حق يوسف.

وقد فاجأهم بهذا السؤال فتعجبوا واستغربوا من حالهم كيف يترددون عليه من أكثر من سنتين وهو يعاملهم هذه المعاملة الحسنة، ولم يعرّفهُم بنفسه، وقد عَرَفَهُم وهم لم يعرفوه.

يقول ابن كثير: والظاهر ـ والله أعلم ـ ان يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسـه بإذن الله تعـالى له في ذلك، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم. ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق.

وحينما عرفوه، وهم يعرفون حالهم معه وظلمهم له، اعترفوا بخطئهم في حقه ولا يظهر من سياق الآية أنهم طلبوا منه شيئاً.

وإنما قالوا كما حكى الله عنهم ﴿ قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَيْنَا ﴾ فهذا اعتراف منهم له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق والسعة والملك والتصرف والنبوة، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه. كما قالوا: ﴿ وإنْ كُنّا لَخَاطِئِينَ ﴾.

وقد بادرهم بالعفو عنهم، وعدم اللّوم لهم، لأنه الكريم ابن الكريم، وهذا

عمل الكرماء، حيث قال لهم ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيكُمْ الْيومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِين** ﴾ .

والتثريب التعيير والتوبيخ ـ أي: لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليومَ. ثم اتبع ذلك الإحسان بإحسان آخر وهو طلب المغفرة لهم من الله عز وجل والرحمة. فالله يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فهو أرحم بعباده من الأم بولدها ثم يجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم. فقال ﴿ **يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾. هكذا عمل يوسف عليه السلام مع اخوته.

ولنقرأ ما عمله الرسول محمد ﷺ مع قومه وعشيرته الذين أخرجوه من مكة أحب البلاد إليه، وقد جاء في الحديث الصحيح حين بدأه الوحي وجاءت به خديجة أم المؤمنين إلى عمها ورقة بن نوفل وكان قد قرأ الكتاب فلما قص عليه ما رأى وسمع. قال: انه الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعا حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم قال نعم... الحديث.

ويقول الله تعالى في ذلك ﴿ **وإذْ يَمكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُوا ليثبتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو يُخرِجُوكَ ويمكُرونَ ويمكرُ الله والله خَيرُ المَاكِرِينَ** ﴾ الأنفال / ٣٠ .

وبذلك تمت أحداث الهجرة، وقد عاد عليه السلام إلى مكة فاتحاً فماذا قال لقومه. حين اجتمعوا في المسجد(١) وقال لهم: ما ترون اني صانع بكم قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وفي رواية أخرى ـ قال رسول الله ﷺ : أقول كما قال يوسف لأخوته ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيكُمْ الْيومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِين** ﴾ .

وإنّ لك أيها القارىء الكريم القدوة الحسنة في رسول الله ﷺ في العفو عمن ظلمك ـ والله يعوضك خيرا مما جرى عليك. فإنه لا يضيع أجر المحسنين.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ج ١١٨/٩ .

١٨٥ ـ الاقتداء في الصبر بصبر أولي العزم من الرسل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد ..

أيها القارىء الكريم ـ فإننا قد استفدنا من قصة يوسف وإخوته، وذلك بما تضمنته من أحكام وما جرى فيها من أحداث مما قصه الله على نبيه الكريم محمد ﷺ تسْلية له ففي هذه السـورة الكـريمـة، وبيان ما جرى فيها وصايا وحكم يستفيد منها المسلم في حياته العملية ـ فالله عز وجل يقول لنبيه: ان من ابتلي وصبر الصّبْر الجميل الذي لا سخط فيه ولا تشكّي ـ فإن الله لا يضيع أجره، وأن العاقبة الحميدة له في الدنيا والآخرة. فقد صبر يوسف على ما ابتلي به وكانت العاقبة الحسنة له. وكذا قال لنبيه محمد ﷺ كما في سورة الأحقاف حاثاً له على الصبر والتأسي بأولي العزم من الرسل في ذلك وستكون العاقبة الحميدة له كما كانت ليوسف.

قال: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العزْمِ مِنَ الرسلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُم كَأَنَّهُمْ يَومَ يَرونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعةً مِن نهَار بَلاغٌ فَهَلْ يُهلَكُ إِلَّا القَومُ الفَاسِقُونَ** ﴾.

وفيما حكاه الله من معاملة يوسف لإخوته الذين أساءوا إليه نتعلم الصّبر والتّحمل، ثم العفو عن الظالم عند المقدرة.

وقد مدح الله عز وجل المتصفين بهذه الصفة وإنه عز وجل يحبهم، وأكرم بذلك فضلا وأجرا وإكراماً قال تعالى: ﴿ . . . **والْكَاظِمينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَنِ النّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ** ﴾.

واسمع لما قاله الله في أبي بكر الصديق ـ حين قطع النفقة عن مسطح بن أثال الذي وقع فيما وقع فيه من قصة الافك ـ فقد حَلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق عليه فنزل قوله تعالى في سورة النور ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُم والسَّعَـةِ أَنْ يؤتُـوا أَوْلِي القُـربَى والمَسَـاكِـينَ والمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله ولْيَعْفُوا ولْيصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غفورٌ رَحيمٌ** ﴾ النور / ٢٢ .

فماذا قال أبو بكر رضي الله عنه ـ قَالَ بلى ـ إنّي أحب أن يَغْفر الله لي . فكفّر عن يمينه وأتى الذي هو خير وهو إعادة النفقة إلى مسطح .

إن إخـوة يوسف عليه السلام قد اعترفوا بذنبهم ومارتكبوه في حقه حين واجههم بقوله ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون** . . . ﴾ إلى قول الله عنهم ﴿ **قَالُوا تَالله لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَيْنَا وإنْ كُنَّا لَخَاطِئِين** ﴾ .

ولهـذا بادرهم بالعفو عنهم وطلب المغفرة لهم فقال : ﴿ **لا تثريب عَلَيكُم اليومَ** ﴾ والتثريب : اللّوم ﴿ **يغفر الله لَكُمْ وَهُو أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ** ﴾ .

فيجب على المسلم إن وقع منه ظلم لأخيه المسلم ، أن يعترف بذنبه ولا يكابر في الحق ، وإنما يعترف به ويقر لأهل الفضل بفضلهم لأن فضل الله يؤتيه من يشاء .

كما أنه يحسن بالمظلوم حين يعترف ظالمه بخطئه أن يعفو عنه ولا يلومه فيما جرى منـه لأن ذلـك من نزغ الشيطان ، وبهـذه الأخلاق الحميدة تصفو المودة وتتحقق الأخوة الإيمانية ، وتحصل الألفة والاجتماع ، وتذهب الشحناء المؤدية إلى التفرق والتباغظ فالله يقول لعبادهِ ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** . . . ﴾ .

وقد أشرنا في الوصية الماضية إلى ما قاله المصطفى ﷺ لقومه وعشيرته الذين أخرجوه من مكة أحبّ البلاد إليه ، حين عاد إليها فاتحا وقال لهم كما أخرج ذلك

البيهقي في سننه: ماترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وفي رواية أخرى قال: أقول كما قال يوسف لاخوته ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيكم اليومَ يَغفِر الله لَكُمْ وَهُو أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾.

وهكذا أخلاق الكرماء ـ فهم العافون عن الناس وإن أساءوا إليهم، وهم المسارعون إلى طلب مغفرة الله ورضوانه كما فعل أبو بكر رضي الله عنه يقول تعالى فيهم ﴿ **وَسَارِعُوا إلَى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنّةٍ عَرْضُها السّماوَاتُ والأَرضُ أُعِدَّتْ للمُتقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَاءِ والضَّرَّاءِ والْكَاظِمينَ الغيظَ والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ** ﴾ آل عمران / ١٣٣-١٣٤ .

فكن أيها القارىء الكريم من المحسنين تفُزْ بجنّات النعيم.

ونعود إلى قصة يوسف عليه السلام لنتابع بقية أحداثها المشتملة على الوصايا الحكيمة والأخلاق الحميدة ـ فإنه بعد أن عَفا عن إخوته واستغفر لهم إلتفت إلى حَال أبيه يعقوب عليه السلام، وماقد بلغه من الحزن والأسى حتى ابيَضّت عيناه من الحزن. وما لحق أهله من القحط وأصابهم من الجدب الذي عم البلاد كلها، فقال كما حكى الله عنه ذلك ﴿ **اذْهَبُوا بِقَمِيصي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أبي يَأْتِ بَصِيْراً وَأْتُوني بِأَهْلِكُمْ أجْمَعِينَ. وَلَمَّا فَصَلَتِ العيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إنّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أنْ تُفَنِّدُونَ. قَالُوا تَالله إنّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القَدِيمِ** ﴾ ٩٣-٩٥ .

يقول ـ الإمام ابن كثير في تفسيره:

يقول: اذهبوا بهذا القميص فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وكان قد عمي من كثرة البكاء ـ أي: يرجع بصيراً. ﴿ **وأتُوني بأهلكم أجمعين** ﴾ أي بجميع من يشمله لفظ الأهل من النساء والذراري ـ أي بجميع بني يعقوب. فذهب إخوته من مصر إلى بلاد كنعان لاحضار أبيهم وبنيه إلى أرض مصر ﴿ **ولما فصلت العير** ﴾ أي خرجت من مصر، قال أبوهم يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من

أهله ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قِيل هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب.

وقوله ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي تنسبوني إلى الفند والكِبرَ، والفند هو ذهاب العقل من الكِبرَ والخطأ من الكلام وعن ابن عباس وغيره: لولا أن تسفهوني ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ - أي في خطئك القديم، فالضلال هنا بمعنى الخطأ قاله ابن عباس.

قال ابن عباس والسدي: هذا قول بني بنيه هم خاطبوه بذلك، لأن بنيه كانوا بمصر. كما هو صريح الآيات. فهم لم يصلوا إلى أبيهم بعد. فوقت هذا القول وهم لازالوا بمصر، قال قتادة: أي من حبك يوسف لاتنساه ولاتسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ.

قلت: وهؤلاء هم بنو بنيه كما قال ابن عباس رضي الله عنه، لأن بنيه وقت هذا القول وهم لازالوا بمصر.

ثم بعد ذلك وصل البشير كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَاتَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن عباس والضحاك: البشير: البريد. وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا ابن يعقوب.

قال المفسرون: البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم. فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حيّ، فأفرحه كما أحزنته. ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب، فارتد بصيراً. الارتداد انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها.

والمعنى : عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة البصر.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقلْ لَكُمْ ﴾ أي قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم ﴿ إِني لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُف ﴾ ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَّغفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنّه هُوَ الغَفُور الرّحِيم ﴾ .

ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم طلبوا منه أن يستغفر لهم معترفين بذنبهم الذي اقترفوه في حقه وحق أخيهم يوسف عليه السلام ، وقد وعدهم بذلك . وهو ما سنكمل الحديث عنه في الوصية التالية إن شاء الله .



١٨٦ ـ بيان التحية المشروعة في الشريعة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد . .

يقول الله تعالى في اكمال قصة يوسف عليه السلام مع اخوته، وتحقيق ما آلت إليه رؤياه التي سبق ذكرها في أول هذه السورة ومجيء البشير بقميص يوسف عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام يقول تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَتَعْلَمُون، قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّه هُوَ الغَفُور الرَّحِيم، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ ءَامِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجّداً وَقَالَ يَأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أن نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الحَكِيم** ﴾ / ٩٦-١٠٠ .

فقوله تعالى ﴿ **قَالُوا يَأَبَانَا أَسْتَغفر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** ﴾ اعتراف منهم بالـذنب الذي اقترفوه في حقّ والدهم، وهو عقوقه بما دبروه من احتيال لأخذ يوسف منه بحجة الترفيه عليه ـ كما قالوا: ﴿ **ارْسِلْهُ مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ فقد كَذَبوا على والدهم بقولهم هذا، وإنما ذهبوا بيوسف لقتله أو إلقائه في البئر ـ وقد ألقوه في البئر كما سبق الحديث عن ذلك، ثم أضافوا إلى ذلك تلبيساً آخر وهو أنهم رجعوا إلى أبيهم يبكون، ويدّعون أن الذئب أكل يوسف عليه السلام كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ **قَالُوا يَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتبق وتركنَا يوسفَ عند مَتَاعِنَا فأكلَهُ الذّئبُ وَمَا أنْتَ بمؤمنٍ لَنَا ولو كُنَّا صادقين، وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ**

بِدَمٍ كذب ﴾. ثم اعترافهم بالذنب الذي اقترفوه في حق يوسف عليه السلام الذي لم يرتكب ذنبا في حقهم، وإنما الحسد دفعهم لما اقترفوه في حقه.

وقد وعدهم بما طلبوه منه فقال: ﴿ **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربّي إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرّحيم** ﴾. وقد أخَّر طلب الاستغفار لهم إلى وقت السحر كما رواه عكرمة عن ابن عباس وبه قال ابن مسعود وابن عمر وقتادة والسدي، ومقاتل.

قال الزجاج: إنما أراد الوقت الذي هو أخلق لإجابة الدعاء، لا أنَّه ضَنَّ عليهم بالاستغفار، وهذا أشبه بأخلاق الأنبياء.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخرساني قال: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف: ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ وقال يعقوب: ﴿ **سَوفَ أستغفر لكم** ﴾.

ثم قال الإمام الشوكاني رحمه الله معقبا على هذا: أقول: وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم لقولهم: ﴿ **لقد آثَرَكَ الله علينا** ﴾ فقال: ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم. وطلبوا من أبيهم أن يستغفر الله لهم، وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل، وبين المقامين فرق، فلم يكن وعْد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم، ولاسيما إذا صح أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة، فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول[1] اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادخلُو مِصْرَ إِنْ شَاءَ الله ءَامِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أبويْهِ عَلَى العَرشِ وَخَرّوا له سجداً وقَالَ يَأَبَتِ هذا تأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبلُ قد جعَلَهَا رَبِّي حقا...** ﴾ الآية.

(١) فتح القدير ٣/٥٦.

هذا اخبار من الله عز وجل عن ورود يعقوب عليه السلام وجميع أهلِهِ على يوسف عليه السلام وقدومهم بلاد مصر، استجابة لدعوة يوسف عليه السلام حيث قال لإخوته ﴿ **اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً وأْتوني بأهلِكُمْ أجمعينَ** ﴾.

فرحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخْبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم - قال ابن كثير: وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، قال: ويقال: إن الملك خرج أيضا لتلقيه، وهو الأشبه.

﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله ءامنين** ﴾ مما تكرهون، ومما كنتم فيه من الجهد والقحط، ولا يتحقق ذلك كله إلا بمشيئة الله عز وجل، ولهذا قال: ان شاء الله.

﴿ **وَرَفَعَ أبويْهِ عَلَى العَرْشِ** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي أجلسهما معه على سريره الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك.

﴿ **وخَرُوا لَهُ سُجداً** ﴾ أي سَجَدَ لَهُ أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً.

﴿ **وَقَالَ يَأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ من قَبْلُ** ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل وهي قوله: ﴿ **إني رَأَيتُ أحَدَ عَشرَ كوكَباً والشّمسَ والقَمَرَ رأيتُهم لي سَاجِدينَ** ﴾ وقد حذره والده من أن يقصها على إخوته حتى لايحسدوه.

أما السجود لغير الله تحية، فقد كان هذا سائغاً في شريعتهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، قال ابن كثير: ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فأعطى الله هذه الأمة السلام، تحية أهل الجنة، كرامة من الله تبارك وتعالى عجلها لهم نعمة منه.

وحرم هذا في هذه الملة، وجَعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى.

ففي مسند الإمام أحمد، وابن ماجه ـ لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ قال: ماهـذا يامعـاذ؟ قال: أتيت الشـام فوافقتهم يسجـدون لأساقفتهم وبـطارقتهم، فوددتُ في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: فلا تفعلوا. فإني لو كنت آمـراً أحـدا أن يسجـد لغـير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها[1] الحديث.

وبهذا يظهر لطالب العلم ـ ان شرع من كان قبلنا لايكون شرعا لنا إلا إذا أقره شرعنا، وقد حرم شرعنا السجود لغير الله مطلقا.

وأمّا السجود للمخلوق تحية له، في شريعة يعقوب عليه السلام فهو جائز، لهذا سجدوا ليوسف عليه السلام فعندها قال يوسف ﴿ **يَأَبَتِ هذا تأويل رُؤْيَايَ مِن قبل قد جعلها ربّي حَقاً** ﴾. أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر. كما قال تعالى: ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله** ﴾ أي يوم القيامة يأتيهم ماوُعدوا به من خير وشر.

ومنه التفسير كما يقول ابن جرير رحمه الله في تفسيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا. ويعني به تفسيره.

وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره لقرينة دالة على ذلك، فهذا اصطلاح أصولي، كصرف لفظ الأمر من الوجوب إلى الندب، أو الإباحة وصرف النهي ـ من التحريم إلى الكراهة ـ لدليل يدل على ذلك فهذا أمر متفق عليه عند العلماء.

---

(١) المسند ٤/٣٨١. ابن ماجه ١/٥٩٥ ح١٨٥٣ .

وأما ما أدخله المتكلمون من أفكار أهل المنطق، وهو تأويل آيات الصفات وأحاديثها وصرفها عن ظاهرها وحقائقها التي دلت عليها، فهذا لا يوجد دليل على صرفه عن ظاهره، بل أهل السنة يثبتون ذلك لله عز وجل كما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، على أساس قوله تعالى: ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾.

إذ لا دليل عند المتكلمين لا من كتاب ولا سنة على صرف ذلك اللفظ عن ظاهره وإنما دليلهم العقل، والعقل لا يعارض به نصوص الكتاب والسنة، لأن العقول كثيرة ومختلفة ـ فعقل الجهمي لا يثبت لله اسماً ولا صفة، وعقل المعتزلي لا يثبت لله صفة، وبعض المؤوِّلة ـ يثبت بعضها ويؤول بعضها. فإلى عقل من يرجع المسلم في هذا الأمر العقدي الذي يجب على المسلم الإيمان به.

انه لا مرجع في ذلك إلا إلى الله ورسوله فالله يقول ﴿ ... **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾.

ونرجع إلى قول يوسف عليه السلام وهو يذكر نعم الله عليه فيقول عن رؤياه ﴿ **قد جعلها رَبي حقاً** ﴾ أي صحيحة صدقاً، ﴿ **وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** ﴾ أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره، فهو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

وإلى لقاء آخر لاختتام هذه القصة، ببيان حكم مادعى به يوسف بعد اكمال النعمة عليه وبما قاله الله لنبيه محمد ﷺ في ختام ماقصه الله عليه من أنباء الغيب الذي يوحيه إليه ليبين أن ماجاء به الرسول محمد ﷺ هو من عند الله العليم الحكيم.

١٨٧ ـ بيان أن ماجاء به الرسول محمد ﷺ وحي من الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد . .

فقد وعدنا في الوصية الماضية بالحديث في اختتام قصة يوسف عليه السلام ببيان حكم مادعى به يوسف عليه السلام بعد اكمال نعمة الله عليه وبما قاله الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ في ختام ما قصه الله عليه من أنباء الغيب الذي يوحيه إليه ليبين أن ماجاء به الرسول محمد ﷺ هو من عند الله.

فأما مادعى به يوسف عليه السلام بعد أن أَتَمّ الله عليه النعمة فهو ماجاء في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ١٠١ .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره: هذا دعاء من يوسف الصّديق، دعا به ربّه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا، أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأنْ يَتوفَّاهُ مسلماً حِينَ يتوفّاهُ.

قال الضحاك: وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم قال: وهذا الدعاء يُحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند الاحتضار، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ جعل يرفع اصبعه عند الموت ويقول: اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثاً.

ويُحْتمـل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاءَ أجله، وآنقضى عمره، لا أنَّهُ سَأل ذلك منجَّزاً كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزا، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة: قوله ﴿ **تَوَفَّني مُسلماً وألحقني بالصَّالِحينَ** ﴾. لما جمع الله شمله وأقرَّ عَينه وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها اشتاق إلى الصالحين قبله.

وكان ابن عباس يقول: ماتَمَنَّى نبيٌّ قط الموتَ قبل يوسف عليه السلام، وذكر ابن جرير والسّدي عن ابن عباس أنه أولُ نبيٌ دعا بذلك.

قال ابن كثير: وهذا يحتمل أنه أولُ من سأل الوفاة على الإسلام. كما أن نوحاً أول من قال: ﴿ **ربِّ اغفر لي وَلِوالِدَيّ ولِمَن دَخَلَ بيتِيَ مُؤمِناً** ﴾. ويحتمل أنه أول من سأل انجاز ذلك وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا.

أيها القارىء الكريم سبق الحديث في بيان أن ما ورد ذكره في كتاب الله عز وجل مما هو في شرع مَنْ قبلنا، أنه لا يكون شرعا لنا إلا إذا أقره شرعنا، وفي قصة يوسف عليه السلام جاء قوله تعالى ﴿ **ورفع أبويه على العرش وَخَرُّوا لَهُ سُجّداً** ﴾.

قال العلماء: وهذه التّحية وهي السّجود للكبير: كان سائغا في شريعتهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرَّم هذا في هذه الملّة وجُعل السجود مختصاً بجناب الرّب سبحانه وتعالى.

ولهذا قال ﷺ : لو كنت آمراً أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها.

والمسألة الثانية: هي تمني الموت. وهو ماجاء في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ ... **توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾.

قال ابن كثير: ويحتمل أنه سأل انجاز ذلك وهو ظاهر سياق قول قتادة،

قال: ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا. ثم أورد الأحاديث الدالة على النّهي عن سؤال الموت. منها: ما رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «لايتَمنّينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لابد متمنياً الموت فليقل: اللهم أحيني ماكانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»(١).

وقد أخرج الحديث البخاري في صحيحه / كتاب المرضى / باب «تمني المريض الموت». كما أورد أحاديث أخرى تدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم عملوا بذلك وامتثلوه فقال: حدثنا آدم قال حدثنا شعبةُ عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: «دخلنا على خَبّاب نعوده ـ وقد اكتوى سبع كيات ـ فقال : إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقُصهم الدُّنْيا، وإنَّا أصبنا مالا نَجدُ له موضعاً إلا التراب، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به.

ثم أتيناه مرةً أخرى وهو يبني حائطاً له فقال: ان المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب(٢).

(١) مسند الإمام أحمد ٣/١٠١ .
(٢) خ فتح الباري ١٠/١٢٧ ح٥٦٧٢ .

أيْ الذي يُوضع في البنيان. قال ابن حجر: وهو محمول على مازاد على الحاجة.

قال ابن كثير: وعدم جواز تمني الموت إذا كان سبب ذلك لضر خاص نَزل به كمرض ونحوه، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت خشية على دينه بأن يفتن فيرجع عن دينه بسبب مايصيبه من بلاء، ثم أورد الأدلة على ذلك فقال: كما قال الله تعالى اخبارا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل ﴿ **قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفَّنا مُسْلمينَ** ﴾. وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿ **يَالَيتَني مِتُّ قَبْلَ هَذَا وكُنْتُ نَسياً مَنْسِيَّاً** ﴾ لِمَا تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج وولدت، فيقول القائل أنّى لها هذا؟. ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا ﴿ **يَامَرْيمُ لَقدْ جئت شيئاً فريّاً. يَاأُخْتَ هَارُونَ مَاكَانَ أَبُوكِ امْرأ سَوء وَمَا كَانَتْ أمّكِ بغيّاً** ﴾ مريم ٢٧، ٢٨.

فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصّبيَّ في المهد بأنه عبد الله ورسولُه فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء الذي فيه « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون »[1].

ثم قال: فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني.

وقال البخاري رحمه الله، لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ماجرى، قال: اللهم توفني إليك[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد عن ابن عباس ١/٣٦٨.

(٢) البداية والنهاية ١١/٢٩-٣٠، وأمير خراسان هو: خالد بن أحمد الذهلي نائب الظاهرية.

وفي الحديث: «لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: ياليتني مكانه» البخاري / الفتن / باب٢٣ ح ٧١١٥ لما يرى من الفتن، والزلازل والباطل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون[١] ا. هـ .

أيها القاريء الكريم ـ لقد عشنا مع الوصايا السابقة التي تناول البحث فيها عدة أمور ـ في قصة يوسف عليه السلام: فقد تضمنت أحكاما كثيرة، وتوجيهات كريمة، يحسن بالمسلم التخلق بها والعمل بما جاء فيها، فقصص القرآن أحسن القصص فهو يشمل الوصايا والأحكام والعبر، لأنها أخبار حق وصدق كما قال تعالى في آخر هذه السورة بعد الاشارة إلى ذكر أخبار ماجرى في تلك القصة، قال: ﴿ **مَاكَانَ حدِيثاً يفترى ولَكِنْ تَصْديقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وتفْصيل كلِّ شيء وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤْمِنُون** ﴾.

ثم ختم الله عز وجل هذه القصة بعد ذكر ماجرى فيها، ببيان أن محمدا ﷺ رسول من الله عز وجل، لأنه لايعلم ذلك التفصيل لما حدث ليوسف في جميع مراحل القصة من بدايتها إلى نهايتها إلا الله عز وجل، فهو الذي أوحى إلى نبيه ذلك.

كما أن في ذلك القصص تسلية له ﷺ ، وبيان أن العاقبة الحميدة للصابرين المتقين.

فقد صبر يوسف عليه السلام على مابتلى به وكانت العاقبة الحميدة له. وكذلك الأنبياء جميعاً.

يقول تعالى في بيان ذلك: ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾. أي: ماكنت يامحمد حاضرا عندهم

---

(١) ابن كثير ٢ / .

ولا مشاهداً لهم، حين أجمع أخوة يوسف على إلقائه في الجب. ولكنّا أعلمناك به وَحْياً إليك وانزالاً عليك.

ثم بين سبحانه أن تلك الأنباء عمن سبق فيها عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ومـع هذا ما آمن أكثر الناس. فقال: ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾.



١٨٨ ـ تنبيه الناس من الغفلة وتوجيههم إلى التفكر في آيات الله

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أمـا بعــــد . .

فإن من وصايا الكتاب والسنة تنبيه الناس من غفلتهم وتوجيههم إلى التفكر في آيات ربهم وخـالقهم الدالة على توحيده وإخلاص العبادة له. قال تعالى : ﴿ وكأيّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَمَواتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ* وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ يوسف ١٠٥-١٠٦ .

وذلك بسبب تعلقهم بمالا ينفعهم ولا يضرهم ، مما ألفه الأباء وورثوه عمن سبقهم ، كما قال تعالى عن مثل هؤلاء .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلَّا قَالَ مُتْرَفوهَا إنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءنَا عَلَى أمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون ﴾ الزخرف / ٢٣ .

وهذا بعد قوله تعالى حكاية عن المشركين المحتجين ـ في زعمهم ـ بالقدر على عبادتهم غير الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ وقد ردَّ الله عليهم قَوْلهم هذا وأكْذَبهم في دعواهم التي لا دليل عليها ، وإنما قالوا ذلك جهلا منهم وتقليدا لمن سبقهم فقال : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ* أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ* بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهم مُهْتَدُونَ ﴾ .

فقولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ الرّحْمَنُ مَاعَبْدنَاهُمْ ﴾ هذا فَنٌّ آخر من فنون الكفر بالله

عز وجل جاءوا به للاستهزاء والسخرية، ومعناه: لو شاء الرحمن في زعمكم ـ ماعبدنا هذه الملائكة ـ وهذا كلام حق يراد به باطل، وقد بين الله عز وجل بطلانه بقوله في سورة الأنعام وهو ما حكاه عن المشركين حيث قال: ﴿ **سَيَقُولُ الذينَ أشْرَكُوا لَو شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيء كَذَلِكَ كَذَّبَ الّـذِيْنَ مِنْ قَبلِهِمْ حَتَّى ذَاقُـوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عَنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتخرجُوهُ لَنَا إنْ تَتّبِعُونَ إلاَّ الظّنَّ وَإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصونَ** ﴾ / ١٤٨ .

فأرادوا أن يجعلوا قوله: ﴿ **لَو شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا** ﴾ حجّةً لهم على إقامتهم على الشرك.

وقالوا: إن الله قادر على أن يحولَ بيْننَا وبينَ ما نحن عليه ولانفعله، فلولا أنه رَضِيَ بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك.

فقال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الّذِيْنَ مِنْ قَبلِهِمْ** ﴾ أي: من كفّـار الأمم الخالية ﴿ **حَتَّى ذاقُوا بأسَنا** ﴾ أيْ: استمروا على شركهم بالله غير مستجيبين لدعوة الرسل، حتى ذاقوا عذاب الله عز وجل.

يقول الإمام البغوي رحمه الله: ويستدل أهل القدر بهذه الآية يقولون: إنهم لما قالوا: لو شاء الله ما أشْرَكْنا كَذّبَهم الله وردّ عليهم، فقال: ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الّذِيْنَ مِنْ قَبلِهِمْ** ﴾.

قلنا: التَّكْذِيب ليس في قولهم ﴿ **لَو شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا** ﴾ بل ذلك القول صدق. قلت: يعني إنهم لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله الكونية القدرية.

قال: ولكن في قولهم: إن الله تعالى أمرنا به ورضيَ بما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَالله أمَرَنَا بِهَا** ﴾ فالرّد عليهم في هذا، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء** ﴾.

قال: والدّليل على أن التّكْذيب ورد فيما قُلنا، لَا في قولهم: ﴿ **لَو شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا** ﴾.

قوله: ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الّذِيْنَ مِنْ قَبلِهِمْ** ﴾ بالتّشْديد، ولوكان ذلك خبراً من الله عز وجل عن كذبهم في قولهم ﴿ **لَو شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا** ﴾ لقال: كذلك كَذَبَ الذين من قبلهم، بالتخفيف فكان نسبَهم إلى الكذب، لا إلى التّكذيب.

وقال الحسن بن الفضل: لو ذكروا هذه المقالة تعظيماً وإجلالاً لله عزّ وجل. ومعرفة منهم به لَمَا عَابَهُم بذلك. لأن الله تعالى قال: ﴿ **ولَو شَاءَ الله مَا أَشْرَكْوا** ﴾ وقال: ﴿ **وَمَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا إلاّ أنْ يَشاء الله** ﴾.

والمؤمنون يقولون ذلك. ولكنهم أي المشركون قالوه تكذيباً وتخرصاً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون، نظيره قوله عز وجل ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمـٰن ما عبـدنـاهم** ﴾. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا لَهُمْ بِذَلِـكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصون** ﴾ فهم يقولون ذلك، ويجعلونه حجة لهم في ترك الإيمان.

وقد رُدَّ عليهم في هذا، لأن أمر الله غَيْرَ مشيئته وإرادته، فإنه مريد لجميع الكائنات، غَيَر آمرٍ بجميع ما يريد وعلى العبد أن يتبع أمره، وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لاتكون عذرا لأحد.

ولهذا قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ عنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ** ﴾ أي: كتاب وحجة من الله. ﴿ **فَتخـرِجُـوهُ لَنَـا** ﴾، حتى يظهر ما تدعون على الله تعالى من الشرك وتحريم ما حرمتموه ﴿ **إن تتبعون** ﴾. ما تتبعون فيما أنتم عليه ﴿ **إلاّ الظّن** ﴾ من غير علم ويقين. ﴿ **وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾ أي: تكذبون.

ثم قطع الله حجة هؤلاء المشركين المحتجين بالمشيئة على كفرهم وأعمالهم من التحليل والتحـريم. فحجـة الله قائمة على خلقه، فقال: ﴿ **قُلْ فَلِلّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ** ﴾ أي: التامة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان.

فلو شاء لهداكم أجمعين(١). فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلـك يرضى عن المؤمنـين ويبغض الكـافـرين فهـو العالم بمن يستحق هداية التوفيق، ممن لا يستحقها، ولهذا قال تعالى عن هؤلاء الذين لا يستحقون ذلك بأنهم حتى بعد أن يُدخلهم الله النَّار، ويتحقق لهم ما وعد الله الكافرين به من العذاب، أنهم لو رجعوا للدنيا لعادوا إلى كفرهم وشركهم بالله عز وجل قال تعالى ﴿ ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بأيَاتِ رَبّنا وَنَكونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَاكَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإنّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الأنعام / ٢٧، ٢٨ .

وسبب هذا إعراض كل مشرك بالله كافر بما جاء به رسول الله ﷺ ـ عن التفكر والتّدبرْ في ءايات الله، والجزاء من جنس العمل كما قال تعالى ﴿ . . . فلما زَاغُوا أزَاغَ الله قلوبهم ﴾.

وسبق ذكر الآية الكريمة ـ وهي قوله تعالى: ﴿ وكأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَمَواتِ والَأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ۝ وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ يوسف ١٠٥-١٠٦ .

يقول ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكّر في ءَايَات الله ودلائـل توحيده، بما خلقـه الله في السمـوات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيّارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات. كما قال تعالى ﴿ . . . وَالشَّمْسَ والْقَمرَ والنّجُومَ مُسَخّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ الأعراف / ٥٤ .

قال: وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات،

(١) البغوي ٢ / ١٤٠ .

وحيوانـات ونبـات وثمـرات متشـابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفـات، فسبحـان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات.

قلت: ومع هذه الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله تعالى، المشاهدة صباحاً ومساءً، لا أحد يدعى خلقها ولا مشاركة الله فيها، لا خلقا ولا تدبيرا ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾.

مع ذلك كله يقول الله عنهم: ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون** ﴾.

قال ابن عباس: من إيمانهم: إذَا قيل لهم: من خلق السموات؟ من خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله» وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وغيره.

هذا وسنورد في الوصية التالية ما ثبت في السنة في تفسير هذه الآية وما فهمه سلفنا الصالح من النهي عن الأعمال التي يمارسها بعض الناس، وهي داخلة فيما تضمنته هذه الآية وهي قوله تعالى ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾ / ١٠٦.

فإلى ذلك الحديث .

١٨٩ ـ بيان معنى قوله تعالى ﴿ ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد . .

فقد سبق الحديث بأن من وصايا الكتاب والسنة تنبيه الناس من غفلتهم وتوجيههم إلى التفكر والتدبر في آيات ربهم وخالقهم الدالة على توحيده وإخلاص العبادة له. كما في قوله تعالى: ﴿ **وكأيّنْ مِنْ ءَايَةٍ في السَمَواتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ• وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾.

وأشرنـا إلى أن ابن عبـاس رضي الله عنه قال في تفسير هذه الآية أن من إيمانهم: إذا قيل لهم: مَنْ خلق السموات؟ مَنْ خلق الأرض؟ ومَنْ خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون به.

وقد وعدنا بأننا سنورد في هذه الوصية ماثبت في السنة في تفسير هذه الآية، ومافهمه سلفنا الصالح من هذه الآية، ونهيهم عن الأعمال التي يمارسها بعض الناس مما هو داخل فيما تضمنته هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾.

فمن السنـة ما ثبت في صحيح مسلم من أن المشركـين كانـوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وماملك. وأنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك قال ـ ويلكم قدٍ قدٍ. أيْ: حسبكم لا تزيدوا على هذا أي: على قولكم: لبيك لا شريك لك. ولكنهم يزيدون فيقــولـون: الا

شريكا هو لك تملكه وما ملك يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت»[1]. والله عز وجل لا شريك له، وقد بين تعالى أن الشرك ظلم عظيم.

قال ابن كثير في تفسير الآية: وهذا هو الشرك الأعظم الذي يُعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يارسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك[2].

ثم أورد ابن كثير أحاديث أخرى في تفسير الآية منها:

• حديث ابن عمر: من حلف بغير الله فقد أشرك»[3] رواه الترمذي وحسنه.

• وحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الرُّقي والتّمائم، والتولة شرك[4].

ولفظ أبي داود: عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت: «ان عبدالله بن مسعود، رأى في عنقي خيطا فقال: ماهذا؟ قلت: خيط رُقي لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبدالله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرّقى والتمائم والتّولة شرك.

فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت اختلف إلى فلان اليهودي فإذا رقى سكنت. فقال عبدالله: إنما ذاك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقَى كفّ عنها. إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: أذهب البأس ربّ النّاس، واشف أنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما».

---

(١) مسلم / الحج ح ٢٢.

(٢) البخاري / التفسير ح ٤٤٧٧.

(٣) تحفة الأحوذي / باب النذور ٥/١٣٥-١٣٦ ح١٥٧٤.

(٤) حم ١/٣٨١. د/ الطب / باب في تعليق التمائم ٤/٩ ح٣٨٨٣.

إن الصحـابة رضوان الله عليهم كانوا من أحرص الناس على عمل الخير والإكثار منه، وعلى متابعة رسول الله ﷺ والعمل بسنته، وهم سلفنا الصالح الذين حضروا التنزيل وسمعوا من المصطفى ﷺ أقواله ورأوا أفعاله.

فلنا فيهم الأسوة الحسنة، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. لما رأى ذلك الخيط في عنق امرأته سألها عنه لأنه أمر يلفت النظر، فلما أخبرته بأنه خيط رُقي لها فيه وعلقته بعنقها معتقدة النفع فيه وأنها إذا علقته سكن ما يحدث لها من ألم في عينها، فبين لها أن ذلك العمل من الشرك، وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ان الرقى، والتمائم، والتّولة شرك.

وهـو يقصد بالرقى الرُّقى الشركية، التي ليست بكتاب الله ولا بإسم من أسمائه، ولا بالدعاء الثابت عن رسول الله ﷺ لأن ما كان يعمله ذلك اليهودي من الرقية في الخيط ثم تعلقه في رقبتها من أنواع الشرك والتعلق بغير الله.

بدليل أنه دلها على الرقية الشرعية حيث قال لها: إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: أذهب البأس ربّ الناس، واشف أنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لايغادر سقما»[1].

هذا يوضح لك أيها القاريء الكريم حرص أصحاب رسول الله ﷺ على سد كل باب يوصل إلى الشرك بالله والتعلق بغيره في كل أمر يتصل بعقيدة المسلم.

قال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به، فضلا أن يدعـو به ولـو عرف معنـاه، لأنه يكْرَهُ الدعاء بغير العربية، وإنما يُرخّص لمن لايعرف العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعارا فليس من الإسلام.

---

(١) المسند ١/٣٨١.

وسئل ابن عبدالسلام عن الحروف المقطعة، فمنع منها مالايعرف لئلّا يكون فيها كفر.

وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وبما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثّر بذاتها بل بتقدير الله تعالى[1].

كما أورد الإمام ابن كثير في تفسير الآية أيضا وهي قوله تعالى: ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾. إضافة إلى الأحاديث السابقة، مارواه الإمام أحمد والترمذي بإسناد حسن، عن عبدالله بن عُكَيم مرفوعاً «من تعلق شيئاً وكل إليه»[2].

قلت: ومعنى هذا ـ كما في فتح المجيد ـ أن التعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما. ومعنى وُكِل إليه. أيْ: وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به، والتجأ إليه، وفَوّض أمره إليه، كفاه، وقرب إليه كل بعيد، ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره، أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك، وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب قال تعالى: ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[3] أيْ: كافيه.

وحديث عقبة بن عامر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: من تعلق تميمة فلا أتمّ الله له، ومن تعلق ودعة فلا وَدَعَ الله له[4].

---

(١) فتح المجيد ص١٣٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣١٠ .
(٣) فتح المجيد ص١٣٨ .
(٤) المسند ٤/ ١٥٤ .

قوله: «من تعلق تميمة» أيْ: علقها متعلقا بها قلبه في طلب خير أو دفع شر قال المنذري في تعريف التميمة: خرزة كانوا يعلقونها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات، وهذا جهل وضلالة، إذ لا مانع ولا دافع غير الله.

وقال أبو السعادات: التمائم جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام، وقوله ـ فلا أتمّ الله له، دُعَاءٌ عليه وقوله «ومن تعلق ودعة» الوَدْع ـ بفتح الواو وسكون المهملة، قال في مسند الفردوس «الودع» شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين. في زعمهم.

وقوله « فلا وَدَعَ الله له » بتخفيف الدّال: أيْ: لا جعله في دَعَةٍ وسكون. وهذا دُعاء عليه من رسول الله ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله: وثمّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالبا فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود، عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون** ﴾.

وحديث أبي هريرة عند مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم(١).

وحديث أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي منادٍ: من كان أشرك في عمل

---

(١) الزهد / باب من أشرك في عمله غير الله.

عمله لله فيطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك. رواه الإمام أحمد[1].

وفي مسند الإمام أحمد أيضا حديث محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله يوم القيامة، إذا جاز الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[2].

أيها القاريء الكريم هكذا فهم سلفنا الصالح تفسير هذه الآية الكريمة حيث أوردوا في شرحها هذه الأحاديث المفسرة لمعناها، لأن السنة موضحة ومبينة لكتاب الله عز وجل، وكذلك أقوال الصحابة، لأن تفسير كتاب الله، بعد تفسير القرآن، يفسر بالسنة، ثم بالمأثور من أقوال الصحابة.

فعلى المسلم الابتعاد عما يفسد عقيدته أو يخل بها، لأن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وتحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك، والبدع، والمعاصي، وهو ما سيأتي الحديث عنه في الوصية التالية إن شاء الله كما في وصية رسول الله ﷺ لمعاذ، فإلى ذلك الحديث في بداية المجموعة التاسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) المسند ٤/٢١٥.

(٢) المسند ٥/٤٢٨.

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة